مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

وباء الموتِ الأسودِ وأثرُه على المرأة في الغرب الأوروبِّيِّ (١٣٤٧-١٣٥٠م)

د. ساره على عبدالمجيد صبرى

مدرس بقسم التاريخ

كليه الآداب – جامعة اسوان

DOI: 10.21608/qarts.2024.325899.2078

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٣) العدد (٦٥) أكتوبر ٢٠٢٤

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

وباء الموتِ الأسودِ وأثرُه على المرأة

في الغرب الأوروبّيّ (١٣٤٧-١٣٥٠م)

الملخص:

كان لوباءِ الموتِ الأَسودِ – الذي أصابَ المُجتمَع الأوروبّيَّ والعالمَ كلَّه في القرنِ الرَّابع عشرَ الميلاديّ– تأثيراتٌ هائلةٌ على شتَّى نواحِي الحياةِ، وطُرق العيشِ في مُختلف مناطقِ أوروبَّا، ولم ينجُ من تأثيراتِ هذا الوباءِ أحدٌ تقريبًا، سواءٌ أكان من الرّجالِ أم النِّساء أم الأطفال، وقد تحمَّلت المرأةُ عبئًا كبيرًا إبَّان فترةِ الوباءِ، فكانت المرأةُ كالمُحاربةِ ضدَّ هذا الوباءِ، سواءٌ أكانت ربَّة منزلٍ أم عاملةً، فقد أثبتت المرأةُ قُدرتَها على مُواجهةِ الأزماتِ ونجاحَها في تخطِّيها. فعلى سبيلِ المِثالِ: كانت أوَّل من استجابَ للعملِ داخلَ أروقةِ المُستشفيات، هذا إلى جانبِ قيامِها بتقديمِ الرِّعايةِ الصِّحِّيَّة للمُصابين في المنزلِ، كما تحمَّلت أيضًا مسئوليَّةَ بناءِ المُجتمَع وتنميتِهِ بعد انتهاءِ الوباءِ، فقد أُلقِيَ على عاتقِها مسئوليَّةُ إعمارِ المُجتمَعاتِ الأوروبِّيَّة بالسُّكَّان عن طريقِ الزَّواجِ وإنجابِ الأطفال.

الكلمات المفتاحية: الوباء، الطَّاعون ، الموت الأَسوَد، المرأة، أوروبَّا.

الدِّراسات السَّابقة:

تمَّت الإشارةُ إلى وباءِ الموتِ الأَسوَدِ في كثيرٍ من المُؤلَّفات العربيَّةِ والأجنبيَّةِ، ولكنَّهم أغفلوا ذكرَ دورِ المرأةِ في مُواجهة هذا الوباءِ، وتأثيرِ ذلك على المُجتمَعِ، ومِن هذا المُنطلق سلَّط هذا البحثُ الضَّوءَ على الدَّورِ المُميَّز والواضح للمرأةِ الأوروبّيَّةِ في مُواجهةِ هذه الأزمةِ التي مرَّت بهم، هذا إلى جانبِ توضيحِ مدى العواقبِ التي خلَّفها هذا الوباءُ على المُجتمَع وتأثيرِها على المرأةِ، وعلى حدِّ عِلمي المُتواضِع لا تُوجَد دراسةٌ مُتخصِّصةٌ باللُّغة العربيَّةِ تناوَلَت دورَ المرأةِ خِلال فترةِ وباء الموتِ الأَسوَد، إلَّا أنَّ هناك دراسةً للدُّكتور علي السَّيِّد علي محمود "**الفَناءُ الكبيرُ والموتُ الأَسوَدُ في القَرن الرَّابع عشر الميلاديّ دراسةٌ مُقارنةٌ بين الشَّرق والغرب**"، والتي تناولت أحداثَ الموتِ الأَسوَد في الشَّرق والغرب، إلى جانبِ دراسةِ الدُّكتور حسام محمد محلَّاوي "**الطَّاعون الأَسوَد (٧٤٨-٧٥٢هـ/ ١٣٤٧-١٣٥١م) بين الطَّبيب الأندلسيّ ابن خاتمةِ الأنصاريّ (ت ٧٧٠هـ/١٣٦٩م) وجامعات وأطبَّاء أوروبَّا (دراسةٌ وثائقيَّةٌ مُقارنةٌ)**"، والتي تَناولَت كيفيَّةَ مُواجهةِ هذا الوباءِ من جانبِ أطبَّاء المشرِق والمغرِب.

هذا إلى جانبِ بعضِ الدِّراساتِ الأجنبيَّةِ التي تناولت أحداثَ الموتِ الأَسوَدِ في المُجتمَعِ الأوروبّيّ، مثل دراسةِ:

Hecker: The Black Death in the Fourteenth Century" "

وكذلك دراسةُ:

"John Aberth: The Black Death , The Great Mortality of 1348-1350 abrief history with documents ".

والتى تناولت أحداث لموت الأسود خلال الفترة من ١٣٤٨-١٣٥٠م، من خلال الوثائق التاريخية.

مُقدِّمة:

كان طاعونُ[١] الموتِ الأَسوَدِ[٢] إحدى أسوأ الكوارثِ الطَّبيعيَّةِ التي اجتاحَت العالَم على مرِّ التَّاريخ، فقد تسبَّب في حالةٍ من الهَلعِ والهِيستريا على نطاقٍ واسعٍ، وقد كان لهذا المرضِ بالغُ الأثرِ في التَّأثير على أعدادِ السُّكَّانِ في المُدن والرِّيف على حدٍّ سواءٍ؛

(٢) الطَّاعون في اللُّغة: الوباء، والجمعُ: طواعين، وطُعِن الرَّجل فهو مطعونٌ وطَعِينٌ: أصابه الطَّاعون، وهو المرضُ العامُّ، والوباء الذي يفسدُ له الهواءُ، فتَفسدُ به الأمزجةُ والأبدانُ، ويذكُر ابنُ خاتمة أنَّ الطَّاعون هو الموتُ من الوباءِ، كما ذَكَر أنَّ الطَّاعونَ قُرُوح تخرُّجٍ في المغابن (بواطِن الأفخاذِ) وفي غيرها، كما وردَ في بعضِ الحوليَّاتِ المُعاصرةِ باسمِ (Peste)، والتي تعنِي: المصائبَ الكُبرى التي تحدُث للإنسانِ؛ ونظرًا لعِظم الفاجعةِ المُستمدَّة من الكلمةِ اللَّاتينيَّة (Pestis)، ارتبطَ هذا الاسمُ بطاعُون ١٣٤٩م؛ لِما له من هولٍ عظيمٍ، كما أَطلَق عليهِ بعضُ المُؤرِّخين اسمَ (الموتِ) (Plague)؛ أي: الورمِ أو الانتفاخِ، كما أُطلِق على هذا الطَّاعونِ اسمَ The Great Mortality العامّ، أو الوفياتِ العُظمى.

انظُر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، مج٤، ص ١٨٠، وابن خاتمة الأنصاريُّ، تحصيل غرض القاصدِ، ص١٢٧.؛ راجع أيضًا:

I. F. C. Hecker, The Black Death in the Fourteenth Century,Translator: B. G. Babington, A. Schloss, London,1833,p.4-6.; Aberth,J., The Black Death , The Great Mortality of 1348-1350 abrief history with documents ,(Bedford Series in History and Culture) ,, Foreign Bookseller, Palgrave Macmillan , New York, 2009,p.1-2.; Burguière, A., Dictionaire des sciences matiere: peste:par Jean-Noël Biraben , Presses Universitaires de France,Paris,1986,p.505.

(٣) يأتي الاسمُ من أحد أعراضِ المرض، وهو نخرُ الأطرافِ، والذي يُصيب جلدَ المُصابين، فيتحوَّل لونُه إلى اللَّون الأسودِ؛ نتيجةً لنزيفٍ تحت الجلدِ، وتُشير بعض الدِّراسات إلى الموتِ الأسودِ على أنَّه الطَّاعون الدَّبليُّ، وهو وباءٌ بكتيريٌّ، ينتشرُ عن طريقِ البراغيثِ بمُساعدةٍ من الحيواناتِ، مثل: الفأرِ الأسودِ، كما سُمِّي هذا الاسمَ من كثرةِ ما أحدثهُ من موتٍ وفناءٍ في مُعظم بُلدان العالم. للمزيدِ انظُر:

DOC NO 31 The Black death l348, Ed in ***E H D***, Vol.4,p.89.; Cf.also: Walter, S. Zapotoczny, The Political and Social Consequences of the Black Death, 1348 – 1351, Walter S. Zapotoczny,2006,p.1.

لأنَّ نسبةَ الوَفيَات بهِ كانت غيرَ مسبوقةٍ، كما ضربَ ممالكَ الغربِ الأوروبّيّ التي سَعَت بكلِّ طاقاتِها إلى التَّغلُّب على ما نجمَ عنه من آثارٍ ظلَّت لعشراتِ السِّنين[١]. ويختلفُ هذا الوباءُ عن بعضِ الأوبئةِ التي حلَّت بالعالَمِ من قبلُ؛ لأنَّ الأوبئةَ السَّابقة كانت تضربُ بلدًا بعينِها، أو مجموعةً من البُلدان، أمَّا هذا الطَّاعونُ فكان عالميًّا، حيثُ ضربَ أقاليمَ الأرضِ مشارقَها ومغاربَها، وشمالَها وجنوبَها، وأُصِيب به الإنسانُ والحيوانُ معًا؛ لذلك وردَ في بعضِ الحوليَّاتِ الأوروبّيَّةِ ما يُفيد بعُموميَّتِه وارتباطِها باسمِه، فعدَّتهُ الحوليَّاتُ المُعاصرةُ في تلك الفترةِ (من ١٣٤٧، حتَّى١٣٥١م) أوَّل وباءٍ عالميٍّ، وفي الواقعِ تشابَهت أدوارُ المرأةِ في مُواجهةِ الأزماتِ على وجهِ العُموم[٢].

---

(٢) حسام محمد محلاوي، الطَّاعون الأسود (٧٤٨-٧٥٢هـ/ ١٣٤٧-١٣٥١م) بين الطَّبيب الأندلسيّ ابن خاتمة الأنصاريّ (ت٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م) وجامعاتِ وأطبَّاء أوروبَّا (دراسةٌ وثائقيَّةٌ مُقارنة)، مجلَّة وقائع تاريخيَّة، عدد: يوليو ٢٠٢٠.

(3) Guy de Chauliac, La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac Chirurgien, Maistre en Médecine de l'Université de Montpellier: Composée en l'An 1363, Felix Alcan,Paris , 1890,p.170-171.; CF.also:Barry,S., and Gualde,N., La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman, **CBMH/BCHM** , Vol 25, 2008, p.463.

اجتاح العالمَ خلالَ فترةِ العصور الوُسطى عديدٌ من الأوبئة الفتَّاكة، منها وباءُ الطَّاعون الذي ضربَ مدينة (آمد) في القرن الرَّابع الميلاديّ في عهدِ الإمبراطور (قسطنطيوس)، وفي القرنِ الخامسِ الميلاديّ أيضًا تعرَّضت إيطاليا لوباءٍ ومجاعةٍ أجبرا (أتيلا) زعيم (الهون) على الانسحابِ منها، وفي عام ٤٩٧م انتشرَ طُاعون (الدَّمامل) في مدينة (الرها) والمُدن المُجاورة لها، وفي عام ٥٥٤م تفشَّى بشكلٍ مُفاجئ وباءٌ بين الفرنجةِ والألمانِ بسببِ الهواء المُلوَّث، ويُقال: إنَّه وباءُ (داء الكلبِ) Rabies، حيثُ وصل إليهم المرضُ عن طريق الكلابِ الضَّالَّة، وكذلك في القرنِ السَّادس الميلاديّ، في عهد الإمبراطورِ (جستنيان)، انتشرَ الطَّاعون الدَّبليُّ (الطَّاعون الجستنيانيُّ)، عبرَ عالم البحرِ المُتوسّط ومُعظَم الشَّرق خلال عامَين. للمزيدِ انظُر:

Ammianus Marcellinus, Roman History,vol.1, Trans,John C.Rolfe ,London& Cambbridge 1935-1940., pp.487- 489.;Hydace,(Hydatius) Chronique, tran.Alain Tranoy,Paris1974, tom.1,pp.147-149.; The chronicle of Joshua

ولأنَّ لكلِّ طاعونٍ أو وباءٍ بدايةً يبدأ منها، ثمَّ ينتشرُ بعد ذلك، فهناك إجماعٌ بين المُؤرِّخين أنَّ نُقطة البدايةِ لمرضِ الطَّاعون الأَسوَدِ كان في آسيا الصُّغرى، في بلادِ الصِّين بالتَّحديد(١)، فقد ذكرَ ابنُ خاتمةَ أنَّ المرضَ بدأ في آسيا الوُسطى في شمال منغوليا، ثمَّ تسرَّب إلى بلادِ القرمِ بناحيةِ البحرِ الأَسوَدِ، ومن البحرِ الأَسوَدِ انتشر مع حركةِ التِّجارةِ، خاصَّةً المراكبَ الجنويَّةَ لموانئ البحرِ المُتوسِّط(٢).

أمَّا عن طريقةِ انتشارِ المرضِ، فقد كان ينتقلُ من البحَّارةِ المُصابين، أو من القوارضِ التي تتحوَّل من السُّفن الرَّاسيةِ بالموانئ للرَّصيفِ، وهو ما يُفسِّر كثرةَ الإصابةِ في المُدن السَّاحليَّة(٣).

---

the Stylite,(composed in Syriac A.D. 507)Trans. W. Wright , Cambridge ,1882,p.19.; The Chronicle of Pseudo-Zachariah Rhetor, Church and War in Late Antiquity , Translated form Syriac and Arabic Sources by Robert Phenix and Cornelia Horn, TTH55, Liverpool University Press , Liverpool ,2011, p.414-415.; Agathias, Histories, Trans. Joseph D . French , CFHB,Vol.2A: Ser. Berolinensis, Berlin . New York,1975,pp.34-35.; **CF.also:** Bury, History of the later Roman Empire : from the death of Theodosius I to the death of Justinian (A.D. 395 to A.D. 565), vol.1, New York,1958,pp.295-296.

(٢) حسام محمد محلاوي، الطَّاعون الأسودُ، ص٥١.

يذكُر الطَّبيب (جي دي شولياك) أنَّ هذا الوباءَ انتشرَ نتيجةً لاقترانِ الكواكبِ (زُحَل، والمُشترى، والمرِّيخ). انظُر:

Guy de Chauliac, La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac,p.169.

(٣) ابن خاتمة الأنصاريُّ، تحصيل غرض القاصد، منشورٌ ضمن ثلاثِ رسائل أندلسيَّة، تحقيق: محمد حسن، المَجمَع التُّونسيُّ للعلوم والفنون والآداب، (بيت الحكمة) – تونس،٢٠١٣م، ص١٤٣، وراجِع أيضًا: حسام محمد محلاوي، الطَّاعون الأسودُ، ص٥٢.

(٤) أحمد سعداوي: المغرب الإسلاميُّ في مواجهة الطَّاعون: الطَّاعون الأعظم والطَّواعين التي تلتهُ (القرنين ٨-٩هـ/١٤-١٥م) Revue De l'Institut Des Belles-LettresArabes, IBLA,1995,1,t.58,p.128 .

وفي سنةِ ١٣٤٧م بدأ مرضُ الطَّاعون المُخيفِ مخاضَهُ الأوَّل في أوروبَّا, فقد دخلَ الموتُ الأَسوَدُ إلى المُستوطنات الجنويَّةِ في (كفا) Caffa[١]، إثرَ تحوُّل شجارٍ وقعَ في أحد شوارعِها بين تُجَّارٍ مسيحيّين وسُكَّانٍ محلِّيّين مُسلمين إلى حربٍ، وبعد مُناوشاتٍ أوَّليَّةٍ التمسَ المسلمُون عونَ الحاكمِ التَّتاريّ (جاني بك) Janibeg، وسُرعان ما أرسل هذا الحاكمُ – كان من (القفجاق) Kipchak[٢]– جيشًا كبيرًا إلى الجنويَّةِ، ألجأَهُم إلى أن يُحصِّنوا الأحياءَ التي يختصُّون بها داخلَ المدينةِ، ومن ثمَّ فقد فرضَ التَّتارُ حِصارَهم على (كفا)، وخلالَ ذلك الهُجوم انطلقَ الطَّاعونُ ليفتكَ بأعدادٍ كبيرةٍ منهم، وتفشَّى الطَّاعونُ بين التَّتار المُحاصِرين، فاعتراهُم غضبٌ شديدٌ حينئذٍ، ولأوَّل مرَّةٍ في التَّاريخ استغلَّ "جاني بك" انتشارَ الطَّاعونِ، واستخدمَهُ ليكونُ سلاحًا يفتكُ به بأعدائهِ، وأمَرهُم أن يحملُوا ضحاياهُم بالمنجنيقاتِ، وأن يُقذَف بهم فوق أسوارِ (كفا) وإلى داخلِ القلعةِ، فأُصِيب الجنويَّةُ بالرُّعبِ مرَّتين، الأُولى من مُفاجأة الجُثثِ المُتعفِّنة المُصابة بالطَّاعون بالمَنجنِيقات، والثَّانيةُ من رائحةِ الموتِ المُتفشِّيَّة مع الطَّاعونِ، فانقلبُوا على أعقابِهم، وفرُّوا

(٢) مدينة كافا: مدينة مُطلَّة على البحرِ الأسودِ، تقع في شبه جزيرة القرم، وكانت من المُدن التِّجاريَّة المُهمَّة في دولة مغول القفجاق، وأقامَ بها الجنويَّةُ والبنادقةُ مراكزَ تجاريَّةً لتجارتهم مع الشَّرق. للمزيد انظُر:

علي السيد علي محمود، الفناء الكبير والموت الأسودُ في القرن الرَّابع عشر الميلاديّ (دراسةٌ مُقارنةٌ بين الشَّرق والغرب)، المجلَّة التَّاريخيَّة المصريَّة، مج٣٣، ١٩٨٦، ص١٦٣.

(٣) القفجاق: خانيَّةٌ مغوليَّةٌ أقامها المغولُ على الأراضي الرُّوسيَّة، وقد تأسَّست بأمرٍ من (جنكيز خان) (١١٥٥ – ١٢٢٧م)، عندما أصدرَ أوامرَهُ بتقسيمِ ما بحوزتِهِ من الأراضي بين أبنائِه، وقد عَرفهم المُسلمون باسم (القبجاق أو القفجاق)، وأطلق عليهم المجريُّون و البيزنطيُّون اسم (الكومان)، بينما اشتهرُوا عند الرُّوس باسمِ (بولفستي) Polovtzy. للمزيدِ انظُر: السيد الباز العريني، المغول، دار النَّهضة العربيَّة – بيروت،١٩٨١، ص١٨٠؛ وفاء عدنان حميد، الأحوال التِّجاريَّة والماليَّة في بلاد القبجاق، حوليَّات آداب عين شمس، مج٤٦، (عدد أبريل – يونيو ٢٠١٨)، ص١٨.

بسُفنِهم يحملُون الموتَ إلى كلِّ المرافِئ التي وصلُوها، وبذلك نشرُوا المرضَ في كلِّ أوروبَّا، فعمَّ الوباءُ كثيرًا من المُدن الأوروبِّيَّة، مثل: (البُندقيَّة، وفرانكفورت، وباريس، ولندن)، وقُتِل وقتَها ما يقربُ من ثُلث سُكَّان أوروبَّا[١]، حيثُ ثبتَ وفاةُ ثلاثةٍ من كلِّ عشرةٍ من الأوروبِّيِّين، حتَّى وصلَ الأمرُ أنَّه عندما امتلَأت المقابرُ، تمَّ حفرُ خنادقَ كبيرةٍ في جميعِ مقابرِ الكنائسِ، وأُلقِيت فيها الجُثَث المُتوفَّاةُ الجديدةُ بالمِئات، وكُسِيت بطبقاتِ التُّرابِ، الواحدةُ فوقَ الأُخرى، وكَشَفت الحفريَّاتُ الأثريَّةُ بعد ذلك دفنَ الآلافِ في مقابرَ جماعيَّةٍ في طبقاتٍ، بعضُها فوقَ بعضٍ[٢].

---

(2) (Ditrich, H., The transmission of the Black Death to western Europe: a critical review of the existing evidence, (M.H.R), January 2017,p.1.; William, L. Langer, The Black Death, cientific American, Vol. 210, No. 2 (February 1964),p.114.; Rosemary, H.,Black Death, Manchester University Press ,1994,p.146.;

روبرت .س. جوتفريد، الموت الأسودُ جائحةٌ طبيعيَّةٌ وبشريَّة في عالم العُصور الوُسطى، ترجمة: أبي أدهم عبادة، المركز القوميُّ للتَّرجمة – القاهرة، ٢٠١٧، الطَّبعة الأولى، ص٧٢؛ عز الدين الدرسي – وفتحيَّة ميمون، انتشار الطَّاعون في أوروبَّا في العصر الوسيط (١٣٤٧-١٣٥٢م)، مجلَّة كليَّة الآداب – جامعة بنغازي، عدد ٥١، ديسمبر ٢٠٢١م، ص٩٣-٩٤.

(٣) شلدون، الأوبئة والتَّاريخ، المرض والقوَّة الإمبرياليَّة، ترجمة: أحمد محمود عبد الجواد، المركز القوميُّ للتَّرجمة – القاهرة، الطَّبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص٦٥؛ جوزيف بيرن، الموت الأسود، ترجمة: عمر سعيد الأيوبي، كلمة للنَّشر والتَّوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربيَّة المُتَّحدة، ٢٠١٣م، ص١٥٦. تمَّ العثور على قبرٍ يحتوِي على طفلٍ يتراوحُ عُمره بين السَّابعة والثَّانية عشرة، وامرأةٍ يتراوحُ عُمرها بين خمسةٍ وعشرين وخمسةٍ وثلاثين عامًا، ورَجُلين وأربعين أو خمسين شخصًا بالغًا من جنسٍ غير مُحدَّد. انظُر:

Monica, H. Green, Pandemic Disease In the Medieval World rethinking The Black Death, Vol 1, Arc Medieval Press, 2015,p.76-77.

المرأةُ وطُرق مُكافحة الوباءِ:

أثَّر الموتُ الأَسوَدُ على جميعِ طبقاتِ المُجتمَعِ من الأغنياءِ والفُقراء، الرِّجالِ والنِّساء، الكِبار والصِّغارِ، ولم يكُن أصحابُ المِهَن الطِّبّيَّة ولا حتَّى السُّلطاتِ الحاكمةِ قادِرين على الاستجابةِ بفعاليَّةٍ ضدَّ هذا الوباءِ، فقد ذكرَ (جيوفاني بوكاتشيو) Giovanni Boccaccio[١] أنَّ "جميعَ نصائحِ الأطبَّاء وكلُّ قوَّةِ الطِّبِّ عديمةٌ وغيرُ مُجديةٍ للأفرادِ، إمَّا لأنَّ طبيعةَ الدَّاء لا تتأثَّر بالأدويةِ، وإمَّا بسببِ جهلِ الأطبَّاء، فبغضِّ النَّظر عن الثَّروةِ، فهُم لم يتمكَّنوا من حِمايةِ أنفسِهم"[٢].

---

(٢) جيوفاني بوكاشيو (١٣١٣-١٣٧٥م): وُلد في مدينةِ (فلورنسا)، في شبابهِ المُبكِّر أرسلهُ أبوه إلى (نابولي) في مُهمَّة تجاريَّةٍ؛ كي يتعلَّم هناك مهنةَ التِّجارة والأعمال المصرفيَّة، غير أنَّه أخفقَ في تجربتهِ التِّجاريَّةِ؛ لأنَّه لم يشعر بأيِّ ميلٍ إلى هذه المهنةِ، كما أخفقَ بعد ذلك في دراسةِ القانون، فقد اكتشفَ (بوكاشيو) منذُ ذلك الحين أنَّه منذورٌ للأدبِ، وليس لأيِّ عملٍ سواه، فراحَ يُنمِّي اهتماماته الأدبيَّة بالتَّردُّد على أدباءِ عصرهِ مثل المُعلِّم (باولو دا بيروجيا)، كما أنَّه كان على صداقةٍ مع أبرزِ أدباء عصرهِ، وهو شاعرُ إيطاليا العظيم (بترارکا)، ومن أهمِّ أعمالهِ: (الدِّيكاميرون) التي صارت نموذجًا يُحتذَى به للرِّوايةِ الحديثةِ، وجعلت من إيطاليا مهدًا حقيقيًّا لفنِّ السَّرد القصصيِّ. انظُر: الدِّيكاميرون، ت: صالح علماني، دار المَدى للثَّقافة والنَّشر، ٢٠٠٦، ص١٠، ١١، ١٥. ؛ راجع أيضًا:

Samuel, K. Cohn., Jr., The Black Death: End of a Paradigm, A.M.R Vol.107,No.3,June2002,p.3.

(٣) الدِّيكاميرون، ص٤٠.؛ راجع أيضًا:

Jean de Venette, The Chronicle Of Jean De Venette, translated by Jean Birdsall, edited, with an introduction and notes, by Richard A Newhall. Columbia University Press,1953,p.173.; Cf.also: Koyama, M., Jedwab, R. and Johnson, N., Pandemics, Places, And Populations: Evidence From The Black Death, February 9, 2019,p11.; Barry, S. and Gualde, N., La Peste,p475.

فقبلَ تفشّي الطَّاعون، كان يُوجَد في أوروبَّا عديدٌ من الجامعاتِ، ومع الإنذارِ الأوَّل للطَّاعون اتَّخذت كلّيّات الطِّبّ في بعضِ الجامعاتِ إجراءاتِها لمُواجهةِ الوباءِ، فقامَت جامعةُ (بيروجيا) Perugia[١] الإيطاليَّةُ بإصدارِ توجيهاتٍ للشَّعب للوقايةِ والعِلاجِ من الوباءِ، كما أصدرَ أعضاءُ كلِّيَّةِ الطِّبّ في جامعةِ (باريس)[٢] مُؤلَّفًا، غرضُه توضيحُ أسبابِ الوباءِ العالميَّةِ والمُتجدّدةِ، وكذلك أفضلُ العِلاجاتِ[٣].

كما كان يُوجَد في أوروبَّا طائفةٌ مُتنوّعةٌ من مُمارسي الطِّبّ من النِّساء والرِّجال، والذين حاولُوا مُواجهةَ الطَّاعون، منهم الصَّيادلةُ الذين يَعُدُّون الأعشابَ الطِّبّيَّة والأدويةَ ويُوزّعونها، والأطبَّاء الحَلَّاقون الذين يَجبُرون العِظام المكسورةَ، ويَعتنُون بالجُروحِ، ويُمارسُون الحِجامةَ، والقابلاتُ اللَّواتِي يُساعِدن النِّساءَ في الولادةِ، والمُعالجُون التّجريبيُّون الذين يستخدمُون الأعشابَ ومُختلف أساليبِ العِلاج غيرِ المِهنيَّةِ الأُخرى، وَفقًا لما تعلَّمُوه من تجربتِهم، والمُشعوِذُونَ الذين يَعدُّون أكاسيرُهم ويُعالجُون بحُبوبِهم بأسعارٍ زهيدةٍ جدًّا، ويأتي على رأسِ هؤلاءِ الأطبَّاءُ المُتعلِّمُون في الجامعاتِ، فمِن المُتعارَف عليه أنَّ المرأة الأُوروبِّيَّة تعلَّمت فُنون العِلاج والتَّمريضِ في أحضانِ أمَّهاتِهن، حيثُ تَعامَلن مع عديدٍ

---

(٢) بيروجيا: مدينةٌ إيطاليَّة تقعُ فوق مجموعةٍ من الجبالِ في وادي التيبر، اشتَهَرت بتجارةِ الحُبوب والنَّبيذ وزيت الزَّيتون. انظُر: (Moore,W.G., The encyclopedia of places,London,1971,p.611).

(٣) جامعة باريس: هي أمُّ الجامعاتِ الشماليَّة، نشأت في نطاقِ أسقفيَّة باريس، ومدرستُها اتَّجهت في دراستِها نحو اللَّاهوت والدِّراسات التَّأمُّليَّة والمُشكلات الفلسفيَّة. انظُر: سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الأوربِّيَّة في العصور الوسطى، موسوعة الثَّقافة التَّاريخيَّة والأثريَّة والحضاريَّة، دار الفكر العربيّ، ٢٠٠٦، ص١٠.

4) Montgomery, A., Campbell, The Black Death Andmen Of Learning, New York, 1931,pp.146-147.

من الأمراضِ التي كانت تُصيب أفرادَ العائلةِ، وكانت النِّساء اللَّواتي يُمارِسن هذِه المهنةَ أكثرَ شيوعًا في الأريافِ، كما كانت الفتياتُ الكبيراتُ والنِّساءُ في العائلةِ بمنزلةِ مُمرِّضاتٍ عند المَرض، فيَعتنِينَ بمُعظم الاحتياجاتِ المادِّيَّة للمريضِ، وقد كانَ إعدادُ المُتوفَّى للدَّفن من مسئوليَّاتِ المرأةِ، حيثُ تقُوم نساءُ الأُسرةِ بنَزعِ الثِّيابِ عن المُتوفَّى وغسلِهِ، ومُحاولةِ وضعهِ في موضعٍ مُلائمٍ قبلَ أن تتيبَّس الجُثَّة، وكُنَّ يَحلِقن لِحَى الرِّجالِ، ويُقلِّمن أظافرَ كِلا الجِنسَينِ، ورُبَّما يَفركنَ الجسمَ بدُهنٍ عِطريٍّ؛ لمُوازنةِ الرِّيحةِ الكريهةِ للتَّعفُّن(١).

وفي الوقتِ الذي لم يتعاطَف فيه النَّاسُ مع الموتَى من الوباءِ؛ خشيةَ أن يلحقَ بهم الأَذى، ممَّا أدَّى إلى تعفُّن الجُثَث، لدرجةِ أنَّه كان يتمُّ إخراجُ الجُثث ووضعُها أمامَ البُيوت، خَرجَت النِّساءُ بكلِّ شجاعةٍ، وشاركَت في علاجِ المَرضى(٢)، وليس أدلُّ على ذلك ممَّا ذكرهُ المُؤرِّخ (جان دي فينت)Jean de Venette أنَّ أعدادَ الموتى كانَت في تزايُدٍ سريعٍ، فكان النَّاسُ يَمرضُون لمُدَّةٍ تزيدُ قليلًا عن يومينِ أو ثلاثةِ أيَّامٍ، ويمُوتون فجأةً، حتَّى لو كانَ في صحَّةٍ كاملةٍ، فمَن كان بخيرٍ يومًا، ماتَ في اليومِ التَّالِي، وحُمِل إلى قبرِه، كما كانت الأعدادُ في (أوتيل ديو) Hetel Dieeu – المُستشفَى الرَّئيس في (باريس)– رهيبةً، فإنَّه ولمدَى طويلٍ ظلَّ ما يُناهز خمسمائةٍ منهم يُحمَلون بخشوعٍ كلَّ يومٍ على عرباتٍ؛ ليُوارَوا الثَّرى بالمقابرِ, وكانت هناك أعدادٌ كبيرةٌ من الأخواتِ الطَّاهرات يقُمن على خِدمةِ المَرضى برقَّةٍ وتواضُعٍ كبيرَينِ، ولا يَكترِثنَ بالموتِ، ولا بثناءٍ من أحدٍ، وكانت أعدادُهن تتناقصُ برحيلِ بعضِهنَّ(٣).

---

(٢) جوزيف بيرن، الموت، ص٢٩، ٧١، ١٢٢.

(٣) روبرت .س.جوتفرد، الموت الأسود، ص٨٥.

) 4(The Chronicle Of Jean De Venette.p.49.;

عز الدين الدرسي – وفتحيَّة ميمون، انتشار الطَّاعون، ص٩٥.

أمَّا فيما يخصُّ المُعالجاتِ التَّجريبيَّاتِ ومُنتحلاتِ مِهنةِ الطِّبِّ، فنتيجةً طَبَعيَّةً للذُّعر الذي أصابَ الأوروبِّيِّين جرَّاء هذا الوباءِ، لجأ بعضُ النِّساء والرِّجال إلى استخدامِ مُركَّباتٍ غريبةٍ مُقزِّزةٍ، عبارةٍ عن خليطٍ من القُرون والحوافرِ والأعشابِ، إلى جانبِ بولِ وكبدِ وأدمغةِ الخيولِ والبغالِ والكلابِ والماعزِ والثَّعالبِ والأرانبِ البرِّيَّة، ظنًّا منهم أنَّ فيها العلاجَ والنَّجاةَ(١).

وعلى إثرِ ذلك، قامت السُّلطاتُ بمُحاولاتٍ للحدِّ من المُحتالينَ ومُنتحلِي مِهنةِ الطِّبِّ في زمنِ الطَّاعون، فقد كافَحَت النِّقاباتُ والجامعاتُ قبل سنة ١٣٤٨م؛ من أجلِ حظرِ مُمارسةِ المُحتالين والمُشعوذِين، فتمَّ إصدارُ مرسومٍ ملكيٍّ يمنعُ الرِّيفيِّين أو الرُّهبانِ أو المُسنَّاتِ أو طُلَّابِ الطِّبِّ أو العشَّابين من مُمارسةِ الطِّبِّ. وعلى سبيلِ المثالِ: تمَّت مُحاكمةُ شخصٍ يُدعَى "روجر كلارك" Roger Clerk، بوصفهِ مُشعوِذًا أُمِّيًّا، نظرًا لوضعِهِ تعويذةً حولَ عُنق امرأةٍ تُدعَى (جوانا آت هاتش) Johanna ate Hache زوجةَ عُمدةِ لندن، وطِيفَ به على ظهرِ خيلٍ في المدينةِ، وعُلِّق على رقبتِهِ رقٌّ فارغٌ وحجر سنٍّ علامةً على كذبِهِ، وقارورةُ فحصِ بولٍ فارغةٍ يستخدمُها الأطبَّاء، علامةً على ما كان ينتحلُه، كما أُجرِيت مُحاكمةٌ لإحدَى مُمارسات مهنةِ الطِّبِّ غير الشَّرعيِّ، وتُدعَى (جاكلين فيلتشي) Jacqueline Felicie، وكانت استندَت في حُجَّتها لمُمارسةِ الطِّبِّ إلى عدمِ السَّماح لأيِّ رجلٍ بلَمسِ جسدِ امرأةٍ مريضةٍ، وقالت: إنَّ عديدًا من النِّساء فضَّلن الموتَ على السَّماح للأطبَّاء بلَمسِهنَّ وتحسُّسهنَّ، وذَكرت فعاليَّتها في علاجِ المريضاتِ، ولكنَّ المحكمةَ لم تتعاطَف معها، وتمَّ تغريمُها، كما مُنِحت هيئةُ القُضاة الدَّائمةُ في (فلورنسا) – وهي نوعٌ من الشُّرطةِ السِّياسيَّة – مسئوليَّةَ الحِفاظ على الصِّحَّةِ العامَّةِ والتَّصدِّي للطَّاعون، وتجنُّب الوباء، إضافةً إلى تقديمِ الخُبز للفُقراءِ، وقامَت بإنشاءِ

(2)Montgomery, A., Campbell, The Black Death,p.29.

مُستشفى القدّيسةِ (ماريا نوفا) Saint Maria Nova، وهي أكبرُ المُستشفياتِ في أوروبَّا، وكان يعملُ فيها ٤ أطبَّاءَ، و٤ جرَّاحين، إضافةً إلى ٤٠ امرأةً، و١٢ رجلًا؛ للإشرافِ على ضحايا الطَّاعون(١).

وفي إيطاليا وفرنسا استمرَّ كثيرٌ من النِّساء في مُمارسةِ الطِّبِّ، وحقَّقن سُمعةً كبيرةً هناك، ولكن لم يُسمَح لهم بمُمارسةِ الطِّبِّ إلَّا بعد اجتيازِ امتحانِ لجنةِ التَّحكيم، فتمَّ حظرُ كثيرٍ من النِّساء غير المُرخَّص لهنَّ مُمارسة الجراحةِ، ولم يُعترَف بحقِّ المُمارسةِ إلَّا لِمَن خَضعَت للفَحصِ أمام الأساتذةِ الجرَّاحِين المُحلَّفين في جامعةِ (باريس)(٢).

ويتَّضح ممَّا سبق: أنَّ المرأة أدَّت دورَ المُنقذِ والضَّحيَّة، فقد أسْهَم بعضُ النِّساءِ في علاجِ المَرضَى، سواءٌ أكان داخلَ المُستشفياتِ أم المنازلِ، ووقَع بعضُهنَّ ضحيَّةً تحتَ أيدِي المُحتالِين ومُنتحلِي مِهنةِ الطِّبِّ، هذا إلى جانبِ أنَّ هناك نوعًا آخَر من النِّساء كُنَّ هن أنفسُهن من مُنتحلاتِ مهنةِ الطِّبِّ؛ ظنًّا منهنَّ أنَّهن بذلك يُشارِكن في مُواجهةِ الوباءِ.

المرأةُ والجانبُ الدِّينيُّ في فترةِ الوباءِ:

مِن أكثرِ الاعتقاداتِ لانتشارِ وباءِ الطَّاعونِ هو الاعتقادُ المسيحيُّ أنَّ الخطيئةَ أغَضبَت الرَّبَّ، فعبَّر عن غضبِهِ عن طريقِ الطَّاعون، فقامَت الحكومةُ بإصدارِ تشريعاتٍ ضدَّ الفُجور الجنسِيّ، خاصَّةً اللِّواطَ والدَّعارةَ، ففي عام ١٣٤٨م طَرَدت (فلورنسا) Florence جميعَ العاهراتِ، وسنَّت قوانينَ ضدَّ العاهراتِ اللَّواتي يَجُبن الشَّوارعَ، كما شدَّدت البُندقيَّةُ الرَّقابةَ على العاهراتِ، مِثلُها مِثلُ بعضِ المُدن الإيطاليَّةِ كـ(بيروجيا،

(٢) جوزيف بيرن، الموت، ص٧٣، ٧٤، ٢٥٩.

(3) Jean de Venette, The Chronicle Of Jean De Venette,p. Lxiv.

ومانتوا Mantua)[١]، وقد لاحظَ أهلُ البندقيَّةِ أنَّ مُمارسة الجنسِ العلنيّ يَجتذبُ إلى المدينةِ غُرباءَ مَقِيتِين، ويُشجِّع العَلاقاتِ الحميمةَ التي تُساعد في نشرِ المرضِ[٢].

إضافةً إلى لُجوء النَّاسِ لطلبِ المُساعدة والشِّفاء من الكنيسةِ، فقد كانت الكنيسةُ تُمارس بعضَ المُمارسات الطِّبِّيَّة، حيثُ كان يُسمحُ لرجالِ الدِّين فقط بتلك المُمارسةِ بجانبِ الأطبَّاء؛ لذلك اقتصَرَت كثيرٌ من العِلاجات على تعاليمِ الكنيسةِ[٣].

وحرصًا على سلامةِ الأفرادِ، تمَّ منعُ التَّجمُّعات الدِّينيَّةِ، مثل: (إقامةِ القدادِيسِ، والمواكبِ الدِّينيَّة الخاصَّة)، ففي البدايةِ كان يتمُّ انعقادُها؛ اعتقادًا منهم أنَّ لها دورًا في

---

(٢) مانتُوا: تقع في شمال إيطاليا في إقليم لومبارديا، جنوب غرب مدينة (فيرونا) Verona. انظُر:
Moore,W.G., The encyclopedia of places,London,1971,p.494.

(٣) جوزيف بيرن، الموت الأسود، ص٢٦٣.
رأَت مُعظم شُعوب العالم القديم أنَّ الطَّواعين كانت عبارةً عن عقابٍ إلهيّ؛ نتيجةً لذُنوب البشر، على الرَّغم من أنَّ السَّيِّد المسيحَ – عليه السَّلام– في العهد الجديدِ لا يُقدِّم المرضَ على أنَّه نتيجةٌ حتميَّةٌ للذَّنب. انظُر:
Stathakopoulos,D., Crime and Punishment: The Plague in the Byzantine Empire(541-749), in. Laster K. Little(ed.),Plague and the end of antiquity, Cambridge,2007,p.106.
وكان من أهمّ الإجراءات الوقائيَّة التي كانت تُتَّبع؛ من أجلِ الوقايةِ من الوباءِ: أن يمتنعَ الرِّجال من مُمارسة الأمور الجسديَّةِ مع المرأة، أو بالأحرَى عدم المُبالغة فيها. انظُر: (Aberth, J., The Black Death, p.54).
Franke, C., The Black Death, Unforeseen An Exchange: Europe's Encounter With Pandemic Sparked An Age Of Exploration, Historical Paper ,p3.
حَرَص رجالُ الدِّين في (أفينيون) على استقطابِ أمهر الأطبَّاء؛ لمُواجهةِ هذا الوباء، فقد كان الطَّبيب الجرَّاحُ (جي دي شولياك) في (أفينيون) في خدمةِ البابا (كليمنت السَّادس)، وقد أظهرَ إخلاصَهُ في تقديم الرِّعاية الطِّبِّيَّة لبلدِه في أثناء فترةِ الوباء، في الوقتِ الذي تخلَّى كثيرٌ من الأطبَّاء عن المرضَى بشكلٍ مُخزٍ، وتهرَّبوا من زيارتِهم في المنزلِ؛ خوفًا من الإصابةِ. انظُر:
Guy de Chauliac, La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac,pp169-171.

تهدئةِ الغضبِ الإلهيّ، وتحفيزِ التَّوبةِ لدى عامَّةِ النَّاس، ولكن مع كثرةِ العَدوى تمَّ منعُ هذه التَّجمُّعات، فاضطرَّ بعضُ الأساقفةِ إلى منحِ امتيازاتٍ لبعضِ الأشخاصِ؛ لمنحِ الإعفاءاتِ وسرِّ التَّوبةِ. فعلى سبيلِ المثالِ: منحَها أسقفُ (باث وولز) في بيانٍ شهيرٍ "لأيّ شخصٍ عاديّ، أو امرأةٍ إذا لم يكُن هناك رجلٌ"(١)، وكذلك نظرًا للأعدادِ الكبيرةِ للموتَى، صرَّحت الكنيسةُ بجلبِ الموتى في اليومِ الواحدِ إلى باحةِ الكنيسةِ مرَّةً واحدةً، ممَّا أدَّى إلى تراكُم الجُثَث، حتَّى وصلت إلى ثلاثينَ جُثَّةً أو أكثرَ، وأُقيمت لهم جنازةٌ جماعيَّةٌ، أمَّا الغُفرانُ فقد تمَّ منحُ كلِّ رجلٍ أو امرأةٍ أو طفلٍ غفرانًا فرديًّا، ثمَّ تمَّ حفرُ مساحاتٍ كبيرةٍ خارجَ الكنيسةِ، وتمَّ دفنُ كلِّ ثلاثِ جُثثٍ أو أربعٍ أو خمسٍ في قبرٍ واحدٍ(٢).

وفي بعضِ الأماكنِ اهتمَّ الرُّهبان أيضًا باحتياجاتِ الرَّعيَّة، وكان هذا أحيانًا يُكلِّفُهم حياتَهم، فتمَّ إصدارُ مرسومٍ في عام ١٣٤٩م يُمنحُ فيه حقُّ الاعترافِ لأيّ شخصٍ، حتَّى وإن كانت امرأةً؛ لتجنُّب موتِ كثيرين دُون تأديةِ سرِّ التَّوبةِ(٣). فعلى سبيلِ المثالِ: في إحدى الضِّياع ماتت صاحبةُ الضَّيعةِ دُون تأديةِ سرِّ التَّوبةِ، ولم يتمكَّن أحدٌ من القيامِ بذلك؛ نظرًا لاختفاءِ القسِّ المُوكَّل بهذه الأمورِ، ولم تتوافَر الإمكاناتُ لحُضور كاهنٍ من كنيسةٍ أخرى مُجاورةٍ(٤).

وفي ١٣٤٩م أصبحت كثيٌر من الكنائسِ والأبروشياتِ في إنجلترا بدُون رُعاةٍ ولا قساوسةٍ ينهضُون على خدمةِ رعاياهُم، هذا على الرَّغم من أنَّ كثيرًا من الرِّجال الذين تُوفِّيت زوجاتُهم إبَّان فترةِ الوباءِ، التحقُوا بالزِّيّ الكهنُوتيّ، ولمَّا لم يَعُد هناك قساوسةٌ

(٢) جوزيف بيرن، الموت الأسود: سلسلة الحياة اليوميَّةِ عبر التَّاريخ، ص١٧٩.

(3) Ole, J. Benedictow, The Complete History of the Black Death, Te Boydell Press, Woodbridge, 2021.,p.615.

(4)Aberth, J., The Black DeathThe p.94.

(٥) روبرت .س.جوتفرد، الموت الأسودُ، ص٩٦.

يقومُون برعايةِ تلك الأماكنِ ويزورون المرضَى ويمنحُونَهم التَّوبة، فإنَّ كثيرًا منهم كانوا يمُوتون دُون أن يُقام لهم قُدَّاسُ الكفَّارة، فلم يستطِع كثيرٌ من المرضَى الحُصولَ على خِدماتِ قسٍّ لدى احتضارِهم، فأصبحَ من المُمكن أن يُؤدِّيَ الواحدُ منهم اعترافَهُ لأيِّ شخصٍ آخَر، وإذا لم يتوافَر رجلٌ، يُمكن أن يُؤدِّيَ هذا الاعترافَ الى امرأةٍ(١).

ويتَّضح ممَّا سبق، أنَّه تمَّ إسنادُ دورٍ دينيٍّ مُهمٍّ للمرأةِ في هذه الفترةِ، فلم يكُن من المُتعارَف عليه أن تقُومَ المرأةُ بدورِ الكاهنِ المُوكَّل بسرِّ التَّوبةِ والاعترافِ، حيثُ كانت هذه المُهمَّة مُخصَّصةً فقط للرِّجال، ولكن وفقًا لتغيُّر مُجريَاتِ الأمور؛ بسببِ موتِ كثيرٍ من رجالِ الدِّين جرَّاء الإصابةَ بالوباءِ، تمَّ الاعتمادُ على المرأةِ في تلك المُهمَّة، ممَّا يدلُّ على أنَّ المرأةَ تُعدُّ عنصرًا رئيسًا لا غنَى عنه في المُؤسَّسات الدِّينيَّة.

وفي الحقيقةِ، كما شاركتِ المرأةُ بكلِّ إيجابيَّةٍ في هذه المِحنةِ، شَاركَت أيضًا في بعضِ الحركاتِ التي انتشَرت في تلك الفترةِ، وحَاربتهَا الكنيسةُ، فمِن المُتعارف عليه أنَّ الشَّعب الأوروبِّيَّ لَجأ فورَ ظُهور الموتِ الأَسوَدِ إلى الكنيسةِ، بوصفِها ملاذَهم للعِلاج النَّفسيِّ والبدنيِّ، ومع تزايُد أعدادِ المُصابين والمُتوفَّين بشكلٍ كبيرٍ، إلى جانبِ التَّدابير التي اتَّخذتها الكنيسةُ فيما يخصُّ بعضَ الطُّقوس – كـ(طقسِ الاعترافِ)، تَبايَنت ردودُ أفعالِ الأوروبِّيّين، حيثُ اعتقدَ بعضُهم أنَّ الكنيسةَ ورجالَها فَشِلوا في القضاءِ على الطَّاعون، ممَّا أدَّى إلى ظُهور ظاهرةٍ مُرتبطةٍ بالموت الأَسوَدِ، والتي ظَهَرت في ألمانيا، وهي السِّياطة Flagellism(٢)، وكان النَّاسُ يَرَون أنَّهم يحتلُّون درجةً أعلى من رجالِ

(2) Ole, J. Benedictow, The Complete History of the Black Death, p.351.;
روبرت .س.جوتفرد، الموت الأسود، ص١٠٥–١٠٦، وجوزيف بيرن، الموتُ الأسود، ص١٩٠.

(١) السِّياطون أو التَّائبون: هم مجموعةٌ من الرِّجال انتفضُوا في ألمانيا، واجتمعُوا في مجموعاتٍ كبيرةٍ، وسارُوا في مواكبَ عبر المُدن والبُلدان لمُدَّة ثلاثةٍ وثلاثين يومًا، وقامُوا بالضَّرب على ظُهورهم وأكتافِهم بالسِّياط المُثقلة، وكانت لهم طقوسٌ، مثل: ترديدِ التَّراتيل بأصواتٍ عاليةٍ؛ وذلك للتَّكفير عن

الدِّين، ومن المُتعارَف عليه أنَّ النِّساء كانت تُشارك في هذه المواكبِ مع الرِّجالِ، فكانوا يسيرُون مَثنَى في مواكبَ طويلةٍ، تأخُذ هيئةَ الأفاعِي، وكان الرِّجالُ يتقدَّمون تلكَ المواكبِ، ووراءهم النِّساءُ، وهم يُردِّدون التَّرانيمَ، وكانوا يتَّخذون أرديةً بيضاءَ مُزيَّنةً بصُلبانٍ حمراءَ في مُقدِّمتها وخلفِها، كما حَملَ بعضُهم الصُّلبان، وكانوا يدعُون قائدَهم بـ(السَّيِّد، أو الأبِ)، وكان هو بدورِه يُنصِت إلى اعترافاتِهم، وقد أزعجَ ذلك الكَهنةَ، كما كان يَعرِضُ عليهم الكفَّارةَ ويمنحُهم الغُفران، مُقابل أن يُؤدِّيَ الواحدُ منهم قَسَم الطَّاعةِ المُطلقةِ لهم طيلةَ بقاءِ الموكبِ، فأصدرَ البابا (كليمنت السَّادس) Clement VI ١٣٤٢– ١٣٥٢م[١] مرسومًا يُثبِت جريمتَهُم، ويدعُو لمُطاردتِهم أينما وُجِدوا، وبحسبِ روايةِ شاهدٍ عَيانٍ – المُؤرِّخ الفرنسيّ (فروا سار) Jean Froissart– "كان التَّائبون يطُوفُون أنحاءَ ألمانيا، قادِمين من خارجِها، مُردِّدين أغانيَ عن ميلادِ (يَسُوع) وآلامِه؛ ليُكفِّروا عن ذُنوبهم، وكان كلُّ

ذنوبِهم، ولم تكُن السِّياطةُ غريبةً عن ألمانيا، فهي ترجعُ إلى أواخِر القرن العاشرِ الميلاديّ، ومع اقترابِ مُرور ألف عامٍ على ميلادِ السَّيِّد المسيحِ، كان كثيرٌ من النَّاس وقتَها يُؤمنون بأنَّه سوف يعودُ مرَّةً أخرى؛ ليُعلن مَقدم العصرِ الجديدِ، ثمَّ ظهرت السِّياطة خلالَ الموتِ الأسود في أيبيريا وفرنسا، وربَّما كانت البدايةُ الأولى في المجر ١٣٤٨م، ثمَّ امتدَّت حركةُ (السِّياطين) في أواسط أوروبَّا، وكان السِّياطون يتقدَّمون في مجموعاتٍ تتألَّف الواحدةُ منها من خمسينَ إلى ثلاثمائةِ شخص. انظُر:
Jean de Venette, The Chronicle Of Jean De Venette, ,p.52.;
عز الدين الدرسي – وفتحيَّة ميمون، انتشار الطَّاعون في أوروبَّا، ص٩٧–٩٨.

(٢) كليمنت السَّادس هو: (بيير روجر) Pierre Rojer، وُلد عام ١٢٩١م، وفي عام ١٣١٠م Chaise – Dieu التحقَ بالدِّير البندكتي في كاسي ديو، ثمَّ ذهب إلى جامعةِ (باريس)، ليختصَّ في علم اللَّاهوت والقانون، وفي عام ١٣٤٢م انتُخب ليكون (بابا)، باسم (كليمنت السادس). انظُر:

Gaude F, Bullarum diplomatum et privilegiorum, sanctorum romanorum pontificum, tomus.iv, 1340- 1431, Au Gustae tourinorum, Tourinesis, 1859, p.335.; Baluze (S.), Vitae Paparum Avenionensum, tome. 1, ed. G.mollat, Paris, 1914, p.274.

ذلك؛ طلبًا للشِّفاء، وإنهاءً للطَّاعون، وكانوا يَجلدُون أنفُسَهم بالسِّياط ذاتِ المساميرِ الحديديَّةِ، حتَّى تسيلَ منهم الدِّماء، وكانت النِّساء أيضًا يأتينَ بقِطعٍ من القماشِ، ويُجمِّعن فيها الدِّماء السَّائلةَ، ويُلطِّخن بها عُيونَّهن؛ ظنًّا منهنَّ أنَّ فيها الشِّفاءَ من الأمراضِ، وقد انتَشَرت هذه الحركةُ في مناطقَ كثيرةٍ في أوروبَّا(١).

وفي الحقيقةِ، كان من الصَّعبِ السَّيطرةُ على هذه المواكبِ التي يُدعَى إليها لطلبِ المغفرةِ من الرَّبِّ، ورفعِ بلاءِ الطَّاعون، فقد كان من الصَّعب منعُهم من تجربةِ هذا العلاجِ الرُّوحيِّ، فأحيانًا كان يبلغُ أعدادُ الأشخاصِ الذين يحضُرونَ تلك المواكبَ إلى ٢٠٠٠ شخصٍ من النِّساء والرِّجالِ(٢).

فعلَى سبيل المِثالِ: في عام ١٣٤٩م، جاء حوالَي ٢٠٠ من السِّياطين إلى (استراسبورغ) Strasbourg(٣)، وكانوا يحملُون الأعلامَ، وقامُوا بالسُّجودِ على شكلٍ صليبٍ، ثمَّ بدأ المُغنِّي يقولُ: "الآنَ نرفعُ أيدينَا ونُصلِّي.. يا اللهُ؛ اقبِض الموتةَ العظيمةَ (الموتَ الأَسوَد) بعيدًا!"، ثمَّ نهضُوا، وفعلُوا هذا لمُدَّة ثلاثِ ساعاتٍ، وكانوا يحملُون المَشاعلَ والشُّموعَ، ويطُوفون المُدنَ والقُرى، وكانوا جميعًا يرتدُون معاطفَ وأغطيةً للرَّأس باللَّون الأحمرِ، وعلى الرَّغم من اشتراكِ المرأةِ في تلك المواكبِ، فإنَّ من أهمِّ الطُّقوس التي كانوا يتَّبعُونها ألَّا يُحدِّث أحدٌ منهم امرأةً، وإذا كَسَر أحدُهم تلكَ القاعدةَ، فعليه

(2) Jean Froissart, Chronicles,ed. Brereton, Geoffrey,Baltimore:Penguin Books 1968, p.111-113.

عز الدِّين الدرسي – وفتحيَّة ميمون، انتشار الطَّاعون في أوروبَّا، ص٩٧–٩٨.

(٣) جوزيف بيرن، الموت الأسود، ص٢٩٤.

(٤) مدينة فرنسيَّة، تقعُ على نهر إيل، كانت مركزًا تجاريًّا وثقافيًّا وميناءً نهريًّا مُهمًّا، تشتهرُ بالدِّباغة وتعليب الفواكهِ والخَضروات. انظُر:

Moore,W.G., The encyclopedia of places,p.748.

الاعترافُ والرُّكوع أمامَ سيّدهم، فيقومُ السَّيّد بتطبيقِ عُقوبةِ الجلدِ بالسَّوطِ على ظهرِه، ويقولُ: "**قُم من الألمِ المُطهّر. وابتعِد عن الخطيئةِ من الآنَ**"، ومن القواعدِ الأخرى التي كانُوا يتَّبعونها هي التَّكفيرُ عن ذُنوبِهم على الأقلِّ مرَّتين في اليومِ، في الصُّبح والمَساء، ثمَّ يأخذُون سِياطَهم، ويخرجُونَ خارجَ حُدود المدينةِ، بعد أن يقُومَ أحدُهم بقَرعِ الأجراسِ، ثمَّ يجتمعون ويخرجُون في صفوفٍ، ويُغنُّون ترنِيمَاتِهم كما هو مُوضَّح سابقًا(١).

وإلى جانبِ مُشاركةِ المرأةِ في تلك المواكبِ مع الرِّجالِ، فقد انطلَقنَ وتجوَّلن أيضًا في البلادِ في مَسِيراتٍ وهن يُغنِّينَ ويُردِّدنَ التَّراتيلَ؛ للتَّكفيرِ عن ذُنوبهنَّ، وقُمن بجلدِ أنفُسهنَّ مثل الرِّجال، كما حملَ الأطفالُ والصِّبيةُ السَّوطَ أيضًا(٢).

ويُستشفُّ أنَّه على الرَّغم من السَّماح للمرأةِ بالمُشاركةِ في تلك المواكبِ، فإنَّهم كانوا ينظُرون إليها على أنَّها من أسبابِ غضبِ الرَّبِّ، وعند لمسِها يجبُ التَّكفيرُ عن هذا الذَّنبِ، حتَّى يرفعَ الله عنهم الوباءَ.

المرأةُ في الأدبِ والفنِّ في فترةِ الموتِ الأَسوَدِ:

أتى الموتُ الأَسوَدُ بتغييرٍ واضحٍ في الأساليبِ والأفكارِ الأدبيَّةِ، فأصبحَ مُعظمُها قاتمًا، فعلَى سبيل المثالِ: تميَّزت بعضُ أعمالِ الأديبِ (بوكاتشيو) الأدبيَّة بأن سادَها جوٌّ شديدٌ من القتامةِ والتَّشاؤم، حتَّى وُصِفت بالتَّفاهات، فقد تحوَّل فيها ضدَّ الحبِّ والعاطفةِ وحتَّى النِّساء، وبدا فيها كأنَّه عدوٌّ للمرأةِ، كما أثَّر الموتُ الأَسوَدُ أيضًا على مشاعرِ الفنَّانِين، فلم يكُن الموتُ يُصوَّر بهيكلٍ عظميٍّ خياليٍّ، كما كان الحالُ في السَّابق، وإنَّما صارَ يُصوَّر على هيئةِ امرأةٍ عجوزٍ بَشِعةٍ، تشعُّ بالسَّواد، لها شعرٌ أفعوانيٌّ، وعُيونٌ

(2)Aberth, John., The Black,p.126-127.

(1) Jean de Venette, The Chronicle Of Jean De Venette, ,p52.;cf.also: Aberth, John., The Black,p.154.

جاحظةٌ، وأقدامٌ بَرَزت منها مخالبُ ومناجلُ تحصدُ بها ضحايَاها؛ لكي تُطعِمها الأفاعِيَ وضفادعَ الجبالِ، وتمثَّلت هذه الصُّورةُ في جداريَّةِ الفنَّان (فرانشيكو تراياني) Francesco Traini العظيمةِ "انتصار الموتِ"، والتي تعودُ إلى عامِ ١٣٥٠م، هكذا عكسَ الفنُّ ما سادَ في تلك الفترةِ من فقدِ التَّفاؤل، هذا إلى جانبِ بعضِ النُّقوشِ التي تُصوِّر العذراءَ على أنَّها جثَّةٌ تلتهمُها الأفاعي وضفادعُ الجبلِ(١).

وممَّا سبقَ، يتبيَّنُ أنَّ نظرة الفنِّ والأدبِ في تلك الفترةِ كانت تسُودها السَّوداويَّةُ المُفرطةُ، فقد تأثَّرت الأعمالُ الفنِّيَّةُ والأدبيَّةُ التي أنجزَها أصحابُها بالوباءِ، فمن خِلالهم تمَّ تجسيدُ الطَّاعون في شخصيَّاتٍ غامضةٍ خارجةٍ عن المألوفِ؛ ولأنَّه كان يُنظَرُ للمرأةِ في أوروبَّا على أنَّها كائنٌ من الدَّرجةِ الثَّانيةِ، فقد حازَت على الصَّدارةِ في الأعمالِ الفنِّيَّةِ والمُؤلَّفات الأدبيَّة، ويتَّضح ذلك من تصويرِ الموتَى من جرَّاء الوباءِ على هيئةِ امرأةٍ قبيحةٍ، أمَّا تصويرُ العذراءِ بجُثَّةٍ يلتهمُها الأفاعِي، فإنَّه يدلُّ على انتصارِ الموتِ الأَسوَدِ حتَّى على الجانبِ الدِّينيّ، وعلى ضعفِ المرأةِ وتأثُّرِها بالوباءِ.

تأثيرُ الموتِ الأَسوَد على المرأةِ والمُجتمَع:

لقد كان للموتِ الأَسوَدِ تأثيرٌ واسعُ المَدى على المُجتمَعاتِ الإنسانيَّةِ، فقد تأثَّرت كافَّة النُّظمِ الاجتماعيَّةِ بهذا الوباءِ، حتَّى امتدَّت إلى الحياةِ اليوميَّةِ للأفراد، وشَملت تغيُّرًا في نمطِ حياةِ الأفراد والأُسَر، وبالتَّالي تأثَّرت المرأةُ في المُجتمَع الأوروبّيّ بشكلٍ واضحٍ، حيثُ أدَّت كثيرٌ من العواملِ والضُّغوطاتِ إلى انتشارِ العُنف داخلَ المُجتمَع الأوروبّيّ، فنَشأت بعضُ العاداتِ التي كانت تتعارضُ تمامًا مع التَّقاليدِ السَّائدةِ في المُجتمَعِ الأوروبّيّ. فعلى سبيل المِثال: كان من المُتعارَف عليه في السَّابق، أنَّه في حالةِ وفاةِ أحدِ أفرادِ الأُسرةِ أن

(١) روبرت .س.جوتفرد، الموت الأسود، ص١٤٥، ١٤٦، ١٤٨.

تجتمعَ النِّساءُ من أقاربِ وجيرانِ الميّتِ في منزلِهِ؛ من أجلِ الحِداد بصُحبةِ أقربِ النِّساءِ إليه، علاوةً على أنَّ أقاربَهُ يجتمعُون أمام منزلِهِ مع جيرانِه وغيرِهم من المُواطِنين الآخَرين، ويكونُ هناك فِرقةٌ من الكَهنةِ تختلفُ أعدادُهم بحسبِ طبقةِ المُتوفَّى الاجتماعيَّةِ، ثمَّ يُنقَل جسدُه إلى الكنيسةِ التي كان يُريد أن يُدفَن فيها، محمولًا على أكتافِ أقرانِه في جنازةٍ مَهِيبةٍ، حامِلينَ الشُّموع، ولكن عندما بدأت ضَراوةُ الطَّاعونِ في التَّصاعُد، اختَفَت هذه التَّقاليدُ تقريبًا بالكامل وتمَّ استبدالُها بعاداتٍ مُختلفةٍ[١]، فاقتَصَرت الجنازاتُ على عائلةِ المُتوفَّى، إلى جانبِ أقاربِهِ أو أربعِ نساءٍ يتمُّ اختيارُهنَّ بوجهٍ خاصٍّ لهذا الغرضِ، ولم يكُن من المُمكن أن يجتمعَ أحدٌ لتعزيةِ الأرملةِ إلا عندَ الرُّجوع من الكنيسةِ أو الدَّفن، ولا أن تُقرَع الأجراسُ للإعلانِ عن الجنازةِ؛ تجنُّبًا لإزعاجِ المرضَى، فلم يكُن هناك إعلانٌ عامٌّ للجنازةِ حتَّى عن طريقِ المُنادِي أو عازفِ البُوق، ولكن في حالةِ ما إذا كان المُتوفَّى فارسًا من فرسانِ البلاطِ، أو دكتورًا في القانونِ، أو قاضيًا، أو طبيبًا، فإنَّهم يُقيمون لهم الجنازاتِ التي تليقُ بقِيمتِهم، أو بعبارةٍ أدقَّ: كان التَّكريمُ يُرضِي ورثتَهُم[٢].

ومع زيادةِ أعدادِ المُصابين والموتَى بالوباء، نَشَر هذا البلاءُ رُعبًا كبيرًا في قلوبِ الرِّجال والنِّساء، فأصبحَ النَّاس يُهمِلون جيرانهَم، ونادرًا ما يزُورُون أقاربَهم، وأحيانًا لا يزُورُونَهم مُطلقًا، ولا يُخاطبونَهم إلَّا من مسافةٍ بعيدةٍ، فكانُوا يُعاملون المرضَى مثلَ مُعاملةِ (القِطَط، والكِلاب)، فيَضعُون الطَّعام بجوارِ سريرِ المريضِ، ثمَّ يبتعدون سريعًا، حتَّى هجرَ النَّاسُ إخوتَهُم وأعمامَهُم وسائرَ عائلاتِهم، وفي كثيرٍ من الحالاتِ هَجَرت الزَّوجاتُ أزواجهنَّ، والأسوأُ من ذلك، والذي لا يُصدَّق تقريبًا، هو أنَّ الآباءَ والأمَّهاتِ كانوا يرفُضونَ

(٢) جيوفاني بيكاشيو، الديكاميرون، ص٤٣.

(3)Montgomery, A., Campbell, The Black Death,p.116.; I. F. C. Hecker: The Black Death in the Fourteenth Century,p.123.

رعايةَ أطفالِهم ومُساعدتَهُم، وكأنَّهم ليسوا منهم[١]. هذا بالنِّسبةِ لهجرِ النِّساء داخلَ الأسرةِ، ولكن وَصَلت الأمورُ إلى أكبرَ من ذلك، فلَجَأت بعضُ النِّساء إلى هجرِ المدينةِ والمُجتمَع ككُلٍّ من (بُيوتٍ، وأقاربَ، وعائلاتٍ، وأملاكٍ)، واتَّجهنَ إلى الرِّيف باحثاتٍ فيه عن ملاذٍ لهم، وكأنَّهنَّ يتصوَّرن أنَّ غضبَ الله لن يُطلق العنانَ لهذا الوباءِ ضدَّ النَّاسِ في الأريافِ[٢].

وفي الواقعِ، انهارت الحياةُ الطَّبيعيَّةُ في أوروبَّا في أثناءِ تفشِّي الموتِ الأَسوَد، فسادَ الذُّعرُ بين النَّاس الذين أخذُوا يفرُّون من مكانٍ إلى آخر، واستسلمَ بعضُهم إلى الفُجورِ، بينما تحوَّل آخرُون إلى التَّطرُّف الدِّينيّ، إلى جانبِ التَّخلِّي عن المرضَى، وتركِهم دُون رعايةٍ كما ذكَرنا سابقًا، ممَّا أدَّى إلى تفكُّكِ الأسرةِ والمُجتمَع[٣].

وعلى الجانبِ الآخَر، ظَهَرت بعضُ العاداتِ الإيجابيَّةِ خلالَ فترةِ الوباء، وهي مُساعدةُ الأصدقاءِ بعضَهم، فظَهر ما يُسمَّى "**إحسان الأصدقاء**"، وذلك في حالةِ تخلِّي الأهلِ والأقاربِ عن المريضِ، خاصَّةً إذا تُوفِّيَ ربُّ الأسرةِ جرَّاء الوباءِ، فقد كان نتيجةً لهذا الهجرِ الجماعيّ للمرضَى من قِبل الجيرانِ والأهلِ والأصدقاءِ عدمُ توفُّرِ الوسائلِ

---

(٢) جيوفاني بوكاشيو، الديكاميرون، ص٤٢؛ راجع أيضًا:علي السيد، الفناء الكبير، ص١٧٦– ١٧٧.؛
I. F. C. Hecker: The Black Death in the Fourteenth Century,p.123.
لم تكن هذه الواقعةَ الأولى التي هربَ فيها النَّاس من بعضِهم؛ بسببِ وباءٍ أُصيبوا به، فقد تعرَّضت إيطاليا في سنةِ ٥٦٥م لوباءِ الطَّاعون الدَّبليّ، فهرب النَّاس، وتركُوا منازلَهم مهجورةً، وهرب الأبناءُ تاركين آباءَهُم بدُون دفنٍ، بل هربَ الآباء أنفُسُهم تاركين أبناءَهم في ذروةِ الحمَّى. للمزيد انظُر:
Paul the deacon,History of the Lombards,trans.William Dudley Foulke,university of Pennsylvania Prees, Philadelphia,2003,pp.56-58.

(٣)جوفاني بوكاشيو، الديكاميرون، ص٤٢.؛ راجع أيضًا:
Aberth, J., The Black,p.76.
(4) Richard, W. Emery, The Black Death Of 1348 In Perpignan, **J M S**, Vol. XLII, October 1967, No. 4,p.617.

المُناسبةِ لرعايةِ المرضى، ونظرًا لنُدرةِ الخدمِ، تعرَّضت بعضُ الأُسَر – التي لَجَأت إلى الخدمِ؛ لرعايتِهم في أثناءِ المرضِ– إلى جشعِ واستغلالِ هؤلاء الخَدمِ الذين أصبحُوا قليلينَ جدًّا، رغمَ الأجُورِ المُرتفعةِ التي يُطالبون بها، مُقارنةً بالخِدمات التي يُقدّمونها، هذا على الرَّغم من أنَّهم كانوا رجالاً ونساءً من ذوِي العقولِ الغليظةِ الخَشِنةِ، وكانوا أيضًا غيرَ مُعتادِين على مِثل هذه الواجباتِ، ولم يفعلُوا أكثرَ من مُجرَّد مُراقبتِهم للمُصاب عند الاحتضارِ، وفي الحقيقة فقدَ كثيرٌ منهم حياتَهم في أثناءِ أداءِ هذا النَّوع من الخِدمةِ(١).

وكان لهذا الهجرِ الجماعيّ من قِبل الجيرانِ والأقاربِ والأصدقاءِ – نظرًا لقلَّةِ الخدمِ – تأثيرٌ أيضًا على المرأةِ، ففي كثيرٍ من الأحيانِ لم تَجِد المرأةُ المُصابةُ بالطَّاعون مَن يخدمُها ويُقدِّم لها الرِّعاية الطِّبِّيَّة في أثناءِ مرضِها، فكان مِن الطَّبعيّ أن تنسَى النِّساءُ خَجَلها، فلم تَعترِض بعضُ النِّساء مَهمَا بلغَ جمالُهنَّ وغناؤُهنَّ مِن أن يَحضُر لها خادمٌ مُذكَّرٌ يعتنِي بها، سواءٌ أكان صغيرًا أم كبيرًا، ولم تَكترِث حتَّى بالأماكنِ التي ينتشِرُ فيها المرضُ في جسدِها، فكانت تكشفُ جسدَها كأنَّها تَعرضُه على امرأةٍ أُخرى، فقد اقتَضَت ضروراتُ المرضِ ذلك، ممَّا ألحقَ العارَ بمَن شُفِيت منهنَّ فيما بعدُ(٢).

---

(٢) جوفاني بوكاشيو، الديكاميرون، ص٤٣.

(3)Barry, S., and Gualde, N., La Peste,p481.; I. F. C. Hecker: The Black Death in the Fourteenth Centur,pp.123.; .; Rosemary, H.,Black Death, p.31.

كان من أبرزِ أعراضِ الإصابةِ بالموت الأسودِ: ظهورُ بعضِ التَّورُّمات في منطقةِ الفخِذ أو الإبط، وبعضُها كانت على شكلِ بيضةٍ، بينما كان بعضُها الآخر بالحجمِ الشَّائع للتُّفَّاحة تقريبًا، وفي غُضون فترةٍ قصيرةٍ ينتشرُ بشكلٍ عشوائيّ في جميعِ أنحاء الجسم، كما كانت هناك أعراضٌ أخرى للمرضِ ظَهرت عند بعضِ الأشخاص، كظُهورِ بُقعٍ داكنةٍ وكدماتٍ على أذرعُهم وأفخاذِهم وأقدامِهم، وكان نزيفُ الأنفِ علامةً واضحةً للموتِ، لا مفرَّ منه. انظُر:

Herman B. Allyn, The Black Death its Social And Economic Results, Annals Of Medical History, Philadelphia,p.231.; I. F. C. Hecker: The Black Death in the Fourteenth Centur,pp.10-11.

كما كان للموتِ الأَسوَدِ تغيُّرٌ آخرُ في حياةِ المرأةِ، حيثُ أصبح كثيرٌ منهنَّ بعد موتِ أزواجهنَّ بالوباءِ وصيَّاتٍ على أبنائهنَّ، فعندما تفشَّى الطَّاعون في أوَّل مرَّةٍ في القرنِ الرَّابع عشر، ماتَ كثيرٌ من الأوروبّيّين على حينَ غرَّةٍ بدُون أن يعدُّوا ترتيباتٍ واضحةً في أمورِ مُمتلكاتِهم وأبنائِهم بعد موتِهم، وتركُوا زوجاتِهم أو أحدَ أفرادِ العائلةِ أو أصدقائِهم لتنفيذِ الوصيَّةِ في حالةِ موتِ الزَّوجةِ، وفي الغالبِ اشتهرَ الأوصياءُ من الأقاربِ بعدمِ الضَّمير، خاصَّةً إذا ورثَ الأبناءُ كثيرًا من الأموالِ والعقاراتِ، وقد عُرِفوا في إيطاليا باسمِ "**الأصدقاء الزَّائفين**"، حيثُ قامُوا بتبديدِ أو سرقةِ ميراثِ الأوصياءِ عليهم، أمَّا الأطفالُ الفُقراءُ، فقد تُرِكوا تحت وصايةِ الدَّولةِ أو الكنيسةِ[١].

كما مرَّت الأُسر الأوروبّيَّةُ النَّبيلةُ بأزمةٍ كبيرةٍ جرَّاء كثرةِ الوفياتِ في تلك الفترةِ، ولأهمِّيَّةِ الوراثةِ عندهم، غَدَت أزمتُهم البيولوجيَّةُ أشدَّ احتدامًا، ممَّا زادَ وضعُهم سُوءًا، فقد كان مُعدَّل الوفياتِ بين الأطفالِ وصِغار السِّنِّ عاليًا، فبينَ كلِّ أربعةِ أطفالٍ يموتُ ثلاثةٌ منهم قبل أن يبلغُوا سنَّ العاشرةِ، كما أنَّ عشرينَ بالمائةِ من الأمَّهات ماتوا في أثناءِ ولادتِهنَّ، الأمرُ الذي كان يصعبُ معه وجودُ وريثٍ، وعلى مدَى جِيلَينِ لم تتهيَّأ الفرصةُ

---

(٢) جوزيف بيرن، الموت الأسود، ص٢٧٣-٢٧٤.

قام تاجرٌ غنيٌّ يُدعَى (فرانسيسكو داتيني) Francesco Datini، تركَ جُزءًا كبيرًا من ثروتِهِ في سنةِ ١٣٨٤م لإنشاءِ الميتمِ في (فلورنسا) وبلدته (براتو)، وفي عام ١٤١٠م أَنشَأَ مُستشفى الأبرياء في (فلورنسا)، وسَمح بتقبُّل الهِبات والصَّدقات ممَّن يتعاطفُون مع هؤلاءِ الأطفالِ والبناتِ. للمزيدِ انظُر:

Cesare Guasti., Lettere di un notaro a un mercante del secolo XIV,,vol.II,Florence: le Monnier,1880 pp. 171:179.;

جوزيف بيرن، الموت الأسودُ: سلسلة الحياة اليوميَّة عبر التَّاريخ، ص٢٧٣.

لمُعظَم الأُسرِ النَّبيلةِ في إنجلترا لوُجود ذكرٍ، وبالتَّالي انقَرَضت عائلاتٌ قديمةٌ، وحلَّت محلَّها عائلاتٌ أُخرى جديدةٌ(١).

وعلى الجانبِ الآخَر، حاولتِ المرأةُ الأوروبّيَّةُ بكلِّ ما أُوتِيَت من عزمٍ وإصرارٍ مُواجهةَ هذا الوباءِ والتَّغلُّب عليه، فقد لَجَأت مثلًا لنشرِ البهجةِ؛ اعتقادًا منها أنَّها بذلك تُساعد في القضاءِ على الوباءِ، فتنصُّ إحدى الرِّواياتِ على مرورِ مجموعةٍ من الرُّهبان على إحدى المُدنِ، فوجدُوا رجالَ ونساءَ هذه المدينةِ مُبتهجِين، ويُقيمون احتفالًا عظيمًا، يرقُصون فيه على أنغامِ مُوسيقى الطُّبولِ والمزمارِ، فسألهمُ الرُّهبانُ: لِمَ أنتم مُبتهجُون؟ فأجابُوا: "نرى جيرانَنا يموتُون يومًا بعد يومٍ، وبما أنَّ الموتَ لم يدخُل مدينتَنا، فإنَّ مزاجَنا الاحتفاليَّ لن يَسمَح له بالمَجِيء إلى هنا، وهذا هو سببُ رقصِنا"، فانصرفَ الرُّهبانُ من المدينةِ، وفي رحلةِ العودةِ مرُّوا عليها مرَّةً أُخرى، فلم يجدُوا هناك سِوَى عددٍ قليلٍ جدًّا من النَّاس، وكانت وجوهُهم حزينةً جدًّا، فسألهم الرُّهبان: "أينَ الرِّجال والنِّساء الذين كانوا يحتفلُون هنا في مثلِ هذا الوقتِ؟"، فأجابُوا: "واحسرتاه! أيُّها السَّادةُ الطَّيِّبون، نزلَ علينا غضبُ الله على شكلِ بردٍ، نَزَلت علينا عاصفةُ بردٍ عظيمةٌ من السَّماء في كلِّ مكانٍ في المدينةِ، فقُتِل بعضُهم به، وماتَ آخرُون من الخوفِ؛ لأنَّهم لم يعرفُوا: أين يذهبون؟"(٢).

وفي هذه الرِّوايةِ ما يُشيرُ إلى الأدوارِ المُتنوِّعةِ التي كانت تقومُ بها المرأةُ جرَّاء فترةِ الوباءِ لمُحاربتِهِ، بوصفَها نوعًا من أنواعِ الوقايةِ منه، فقد شارَكَت في تقديمِ الدَّعم الطِّبّيّ للمُصابين، كما تَعاوَنت مع المُؤسَّسات الدِّينيَّةِ لتقديمِ الدَّعم الدِّينيّ للمُجتمَع الأوروبّيّ ككُلٍّ، إلى جانبِ مُشاركتِها في تقديمِ الدَّعم الرُّوحيّ والنَّفسيّ عن طريقِ اشتراكِها في بعضِ الحركاتِ، مثل: (حركةِ السِّياطين)، وتحمَّلت مسئوليَّةَ أبناءها مسئوليَّةً كاملةً،

(٢) روبرت .س.جوتفرد، الموت الأسود، ص١٥٢.

(1)Aberth, J., The Black DeathThe,p.164-165.

وكذلك مُحاولاتُها لنشرِ رُوح البهجةِ في المُدن التي يدخلُ فيها الوباءُ؛ اعتقادًا منهم أنَّ ذلك يطردُ الشَّرَّ عن المدينةِ، وينشُر الأفكارَ الإيجابيَّةَ في المُجتمَع.

هذا، وقد خلَّف الموتُ الأَسوَدُ عواقبَ وخيمةً على الأسرةِ والمُجتمَعِ، واستُحدِثت بعضُ التَّقاليد الجديدةِ، واندَثَرت كثيرٌ من العاداتِ والتَّقاليدِ القديمةِ، وكان من أبرزِ العواقبِ التي خلَّفها هذا الوباءُ كثرةُ الجرائمِ في المُجتمَعِ الأوروبّيّ، وبالتَّالي نالت المرأةُ نصيبَها من هذِه الجرائمِ، فقد أثَّر العزلُ الذي فرضَهُ المُواطنُ الأوروبّيُّ على نفسيَّتِهِ وشخصيَّتِه، حتَّى أُصِيب كثيرٌ من الأوروبّيّين بالجشعِ وقسوةِ القلبِ، وأصبحَ للموتِ الأَسوَدِ عديدٌ من العواقبِ طويلةِ المَدى.

وكان من أبشعِ الجرائمِ التي ارتُكِبت ضدَّ المرأةِ في فترةِ الوباءِ، والتي تُوضِّح مدَى استغلالِ المرأةِ وتعرُّضِها للمخاطرِ: ارتكابُ جريمةٍ بَشِعةٍ ضدَّ امرأةٍ ثريَّةٍ تُدعَى (لينا Lena)، فقد تمَّ إقناعُها وهي مريضةٌ بالطَّاعونِ بالزَّواجِ، وبالفعلِ تزوَّجت من شخصٍ يُدعَى (فرانسسيكو Francisco)، وبعدَ الزَّواج تحدَّث (فرانسسيكو) مع بعضِ الأشخاصِ الذين أرادَ استشارتَهُم بشأنِ عدم شفاءِ (لينا)، والتَّرتيبِ لموتِها بدلًا من ذلك، ثمَّ توجَّه إلى دكَّانِ أحد الصَّيادلةِ في السُّوق، واشترَى منه ثمانيةَ مقاديرَ من الزِّرنيخِ Arsenic[1]، ووضعَ الزِّرنيخَ هو وصديقٌ له يُدعَى (توماسيا Thomasia) في رغيفٍ من الخُبز،

(٢) الزِّرنيخ: يُصنَّف كيميائيًّا على أنَّه شبه فلزٍّ، وله خواصُّ معدنيَّةٌ وغير معدنيَّة، يُوجَد عادةً في البيئةِ مُتَّحدًا مع عناصرَ أخرى، مثل: (الأكسجين، والكلور، والكبريت)، ويُسمَّى (الزِّرنيخُ المُتَّحد): (الزِّرنيخ غير العُضويّ)، ومُعظم مُركَّبات الزِّرنيخ عبارةٌ عن مساحيقَ بيضاءَ أو عديمةِ اللَّون، ومُعظمُها ليس له طعمٌ خاصٌّ، فلا تستطيعُ معرفةَ ما إذا كان الطَّعام أو الشَّراب يحتوِي على الزِّرنيخِ أو لا، وقد تمَّ التَّعرُّف على الزِّرنيخ غيرِ العُضويّ على أنَّه سمٌّ بشريٌّ منذُ العُصور القديمةِ. للمزيدِ انظُر:
Toxicological Profile For Arsenic, U.S. Department Of Health And Human Services, Public Health Service, Agency for Toxic Substances and Disease Registry, August 2007,pp.1-7.

وقدَّمه لـ(لينا) لتأكُلَه؛ بُغيَة تسميمِها وقتلِها، وبالفعلِ ماتَت (لينا) في اليومِ التَّالي، وتمَّ القبضُ عليهما، وحُكِم عليهما بالموتِ، وتمَّ إعدامُ (فرانسيسكو)، وتمَّ تأجيلُ حُكم (توماسيا)، ثمَّ تمَّ إلغاؤُه نهائيًّا(١).

وفي الحقيقةِ هُناك تساؤلٌ: هل يُمكن أن يكُونَ زواجُ هذا الرَّجلِ من تلك المرأةِ المُصابةِ بالطَّاعونِ (لينا) سببًا في إصابتِهِ بهذا الوباءِ؟ أو: هل تقدرُ هذِهِ المرأةُ المُنهَكةُ صحّيًّا وجسديًّا على الالتزامِ بمُتطلَّبات الزَّواجِ؟ ترى الباحثةُ أنَّه من المُحتمل أن يكُون هذا الزَّواجُ زواجًا من أجلِ المصلحةِ، فقد أقنعَ هذا المُحتالُ المرأةَ بالزَّواجِ منها، مُقابل خِدمتها في أثناءِ مَرضِها، وعند شفائِها يتمُّ زواجُهما زواجًا صحيحًا، ومن ناحيةٍ أُخرَى اتَّفق هذا المُحتالُ مع صديقِه على القضاءِ على هذِه المرأةِ؛ من أجلِ الحُصولِ على أموالِها.

كما تَصَاعدت كثيرٌ من الهجماتِ على بعضِ الأقلِّيَّاتِ الاجتماعيَّةِ، بما في ذلك المُتسوّلون والأجانبُ، والأشخاصُ الذين يُعانون من الجُذامِ و البرصِ، فكان يُعتقَد أنَّ مُعاناةَ أيّ شخصٍ من مرضٍ جلديٍّ – كـ(حبِّ الشَّباب، أو الصَّدفيَّة)– علامةٌ خارجيَّةٌ على وُجود خللٍ داخليٍّ، كما كانت هناك ظاهرةٌ مُرتبطةٌ أيضًا بالموتِ الأَسوَدِ، وهي المذابحُ ضدَّ اليهودِ Pogroms، حيثُ تمَّ شنُّ سلسلةٍ من الهجماتِ الشَّرسةِ على اليهود، الذين اتُّهِموا بتسميمِ الماءِ وإفسادِ الهواءِ عمدًا، وتمَّت إبادةُ مُعظمِهم في جميعِ أنحاءِ أوروبَّا، وبدأت هذه الهجماتُ في ألمانيا، ثمَّ انتَقَلت إلى جنوبِ البلادِ بفرنسا، ولكنَّها كانت أكثرَ شدَّةً في بعضِ الأجزاءِ من سويسرا. كما وقفَ المُجتمَع الأوروبّيُّ كلُّه ضدَّهم، حتَّى

(2)Brucker, G., The Society Of Renaissance Florence(New York:Harper,1971), pp.141-142.;

جوزيف بيرن، الموت الأسودُ: سلسلة الحياةِ اليوميَّة عبر التَّاريخ، ص٢٦٩– ٢٧٠.

قساوسةِ الكنيسةِ، إلى حدِّ أن أُقِيمت لهم المذابحُ في ألمانيا، وأقدمَ المسيحيُّون خلالَها على الفتكِ بهم، وإلقاءِ الآلافِ منهم في المحارقِ في كلِّ نطاقٍ، وبدُون تفرقةٍ(١).

ومن أبشعِ الجرائمِ التي ارتُكِبت ضدَّ اليهودِ هي إجبارُهم على تلقِّي المعموديَّةِ، ومَن يرفُض منهم يتمُّ إحضارُه من قِبل سُكَّان المُدن، ويُنقَل إلى مقابرَ مُجهَّزةٍ لهم بوجهٍ خاصٍّ، ثمَّ يُجرِّدونهم من ملابسِهم بالكامِل، ثمَّ يحرقُون بعضَهم، ويُغرِقُونَ بعضَهم في المُستنقَعاتِ، والذي ينجُو منهم هو فقط من يختارُ المعموديَّةَ. ولم تَسلَم المرأةُ اليهوديَّةُ من هذه الجرائمِ المُروِّعة، فكانَ من اللَّافت للنَّظر ثباتُ رجالِهم ونسائِهم، فكانت النِّساء يُلقين أطفالَهنَّ في النَّار، حتَّى لا يتمَّ تعميدُهم، ثمَّ يُلقِين بأنفُسِهنَّ حتَّى يحترِقنَ مع أزواجِهنَّ وأطفالِهنَّ. وعلى الجانبِ الآخَر، تمَّ إقناعُ عديدٍ من نساءِ اليهودِ الجَميلاتِ بقَبُول المعموديَّةِ، إلى جانبِ تعميدِ عديدٍ من الأطفالِ بعد اختطافِهم من أمَّهاتِهم، وهكذا تلطَّخت أيدِي مسيحيِّي أوروبَّا بدماءِ اليهودِ، حيثُ لم يَنجُ منهم رضيعٌ ولا طفلٌ ولا جنينٌ في بطنِ أمِّه على حدِّ وصفِهم(٢).

(2) Guy de Chauliac, La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac ,P.171.; cf.also: Walter, S. Zapotoczny, The Political and Social Consequences of the Black Death,p.1.;

روبرت .س. جوتفرد، الموتُ الأسود، ص١٢٠-١٢١.

وردَ في حوليَّةِ (جان دي فينت) Jean De Venette: أنَّ اليهود غير مُذنِبين بتُهمة تسميمِ الآبارِ، كما شاعَ عنهُم، بل إنَّ الطَّاعون ما هو إلا زيارةٌ من اللهِ. انظُر:

The Chronicle Of Jean De Venette,p.189.

وراجِع أيضًا: علي السَّيِّد، الفناء الكبير، ص١٧٧.

(1) Jean de Venette, The Chronicle Of Jean De Venette, ,p.50.;cf.also: Aberth, J., The Black,pp.128-156.

ويتبيَّن ممَّا سبق أنَّ تأثيرَ الموتِ الأَسوَدِ لم يقتصِر على المرأةِ الأوروبِّيَّةِ المسيحيَّةِ، بل شَمِلَ النِّساءَ الأوروبِّيَّاتِ بكلِّ أطيافِهم وأجناسِهم، وليس أدلُّ على ذلك ممَّا تعرَّضت له المرأةُ اليهوديَّةُ من اضطهادٍ وعُنفٍ في فترةِ الوباءِ.

انتهاءُ الوباء وأثرُه على المرأة والمُجتمَع:

شَهِدت أوروبَّا في مرحلةِ ما بعدَ الطَّاعونِ الأَسوَدِ – الذي أودَى بحياةِ رُبع سُكَّان أوروبَّا تقريبًا خلالَ ثلاثِ سنواتٍ (١٣٤٧–١٣٥٠م) – تطوُّرًا كبيرًا لدورِ المرأةِ، فقد تمتَّعت باستقلاليَّةٍ اقتصاديَّةٍ مُتزايدةٍ، وفقَ قيامِهنَّ بأعمالٍ كانت مُخصَّصةً للرِّجال، ولا سيَّما بعد ارتفاعِ نسبةِ وَفياتِ الرِّجال، حيثُ ازدادت نسبةُ حُصولهنَّ على الأراضِي، فشَاركنَ مع الرِّجالِ في ارتفاعِ الأجورِ، ومَارَسن أنواعًا مُختلفةً من الأعمالِ؛ لذلك استطَاعَت النِّساء أن يَجِدن مِهنًا كانت مُقتصِرةً فيما مضَى على الرِّجال، كـ(الحِدَادة، والدِّباغةِ، والتِّجارةِ)، هذا على الرَّغمِ من أنَّه تمَّ جلبُهنَّ إلى المُدنِ؛ للعملِ خادماتٍ أو عاملاتٍ[١].

ومِن العواقبِ الوخيمةِ المُترتِّبةِ بعد انتهاءِ الطَّاعون الأَسوَدِ أيضًا: كثرةُ الاضطراباتِ الشَّعبيَّةِ والصِّراعِ بين الفصائلِ، ممَّا أدَّى إلى حصادِ كثيرٍ من الأرواحِ بشكلٍ كبيرٍ، فقد أهلكَ الطَّاعونُ نِصفَ سكَّانِ المُدن، ممَّا أدَّى إلى الحاجةِ الفوريَّةِ لإعمارِ هذِه المُدُن؛ وذلك للحاجةِ الماسَّةِ لإعمارِ كثيرٍ من المهامِّ الخاويةِ، فقد احتاجَت مشاريعُ البناءِ إلى عُمَّالٍ، واضطرَّ الحِرفيُّون للبحثِ عن مُتمرِّنينَ جُددٍ، فقد تَركَت وفاةُ النِّساء والرِّجال من ذوِي المهاراتِ الخاصَّةِ بعضَ المهامِّ غيرَ مُنجزَةٍ على المدَى القصيرِ على الأقلِّ، ومع اضطرابِ النِّظام الاجتماعيِّ للقريةِ بسببِ الطَّاعون، وَجَدت النِّساء أنَّه من السَّهل عليهن

(٢) مواهب أحمد – وعمار الدوري، المرأة الأوربِّيَّة في العصور الوسطى– نساء الطَّبقة العاملةِ أنموذجًا، مجلَّة الملويَّة للدِّراسات الآثاريَّة والتَّاريخيَّة، مج٦، عدد: ١٧، ٢٠١٩م، ص١٥٤–١٥٦.

الهربُ إلى المُدن التي رَحَّبت بهنَّ، فتُشِير الدِّراساتُ أنَّ النِّساء هاجَرن إلى المُدن أكثرَ من الرِّجال، ممَّا أدَّى إلى استقلاليَّةِ المرأةِ، ومُشاركتِها في أسواقِ العملِ(١).

لذلك عند انتهاءِ الوباءِ، كان لا بُدَّ من إحياءِ الحياةِ في المُدن، وتشجيعِ إعادةِ إعمارِها، عن طريق الهجرةِ الطَّبيعيَّةِ من الرِّيف، حيثُ أثَّرت وفاةُ أعدادٍ كبيرةٍ من الأطفالِ الرُّضَّع والنِّساء الخصيباتِ على نُموِّ جيلِهم بعد ٢٠ أو ٣٠ عامًا، ممَّا أثَّر على إعمارِ المنطقةِ، فتمَّ تشجيعُ زيادةِ مُعدَّلاتِ الإنجابِ في أعقاب الطَّاعونِ؛ لتحقيقِ الإعمارِ والنُّموِّ الطَّبيعيِّ للسُّكَّان، كما تمَّ تشجيعُ الرِّجال غيرِ المُتزوِّجين على الزَّواجِ، وكذلك النِّساءُ اللَّواتي ترمَّلن، وأدَّى ذلك إلى قلَّةِ أعدادِ المُترهِّباتِ، حيثُ شعرَ النَّاسُ بالحاجةِ الماسَّةِ إلى الإنجابِ والتَّكاثُر(٢).

ويُلاحَظ أنَّه في الفترةِ التي أعقَبت الوَباءَ حَدَثت تغيُّراتٌ واضحةٌ في مُعدَّلات الزَّواجِ والخُصوبةِ، فلم يكُن هناك عُقمٌ بين النِّساءِ بنسبةٍ كبيرةٍ، بل زَادَت مُعدَّلات الخُصوبةِ بنسبةٍ تَفُوق المُعتادَ، فقد شُوهِدَت كثيرٌ من النِّساء الحَوامِل، وأنجبَ كثيرٌ منهنَّ التَّوائم(٣).

ولم يكُن الانخفاضُ الهائلُ في عددِ السُّكَّان الأثرَ الوحيدَ المُترتِّب على هذا الوباءِ، بل تغيَّرت البِنيةُ الاجتماعيَّةُ والاقتصاديَّةُ لأوروبَّا بشكلٍ ملحوظٍ، فكانتَ بمنزلةِ ضربةٍ كارثيَّةٍ لأوروبَّا، فكان لنقصِ العُمَّال أكبرُ الأثرِ على زيادةِ الأسعارِ للموادِّ الغذائيَّةِ، وعلى

(2)Koyama, M., Jedwab, R., and Johnson, N., Pandemics, Places,,p.11.; Samuel, K. Cohn, Jr., The Black Death: End of a Paradigm, ,p.1.;
جوزيف بيرن، الموتُ الأسودُ: سلسلةُ الحياة اليوميَّة عبر التَّاريخ، ص٣٦١-٣٦٨.

(3)Dean, T., ed.,The Towns Of Italy in The Later Middle Ages, New York:Manchester University,Press 2000,p.194.

(1) Jean de Venette, The Chronicle Of Jean De Venette,p.50.; CF.also: Ole, J. Benedictow, The Complete History of the Black Death, p.701.; Rosemary, H., Black Death,p.12.

إثرِ ذلك، أصدرَ البرلمانُ مرسومًا عام ١٣٤٩م لحلِّ قضيَّةِ نقصِ العُمَّال، بوصفِها القضيَّةَ الحاسمةَ في ذلك الوقتِ، وللسَّيطرةِ على القُوَى العاملةِ، فقامُوا بتجميدِ الأُجورِ والأسعارِ، حيثُ أقرُّوا بتقاضِي الأجورِ التي كانُوا يتقاضُونَها قبلَ انتشارِ الوباءِ لمُدَّةِ ستِّ سنواتٍ قادمةٍ، فكان مطلوبًا من الرِّجال والنِّساء الأصحَّاءِ أن يجعلُوا أنفُسَهم مُتاحِين للعملِ لدى أسيادِهم في حالةِ الاحتياجِ لخِدماتِهم، وكذلك في برلمانِ عام ١٣٥١م، قدَّم مجلسُ العُمومِ التماسًا إلى (إدوارد الثَّالث) Edward III (١٣٢٧– ١٣٧٧م)؛ من أجلِ استجابةٍ أكثرَ حزمًا وفعاليَّةً، واشتَكَوا من أنَّ الخَدَم يتجاهلُون تمامًا هذا المرسُومَ، وأنَّهم يَحجُبون خِدماتِهم عنهم، ويُطالبُونهم بالأجُورِ مُضاعفةً[١].

(2) The Burt Chronicle, Ed.By MS. Eawl & Feiedkich W., The Early English Text Society.,Part 1,London,1906.,p,303-304.; Doc No. 95 Statut of labourers 1349 , in A source Book of English historical, Leading Documents, pp. 206-207 ; Cf.also: Bennett, M., The Impact of the Black Death onEnglish Legal History, Australian Journal Of Law And Society, 1995,p.197.; Clay, M., Drop Dead, Feudalism: How The Black Death Led To Peasants' Triumphover The Feudal System, Historical Paper, p.7.;

جمال فاروق الوكيل، ثورة الفلَّاحين في إنجلترا ١٣٨١م، مجلَّة كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – جامعة قناة السّويس، العدد: ١١، سبتمبر ٢٠١٤م، ص١٢١.

خِلال فترةِ الطَّاعون الجستنيانيّ، استغلَّ عُمَّال الزِّراعةِ والصِّناعة والتِّجارةِ قلَّة الأيدي العاملةِ، فقامُوا برفعِ أُجورِهم عن الأسعارِ المُعتادةِ، فقام الإمبراطورُ (جستنيان) بإصدارِ مرسومٍ في سنة ٥٤٤م، يلُوم فيه الجشعَ الذي أصابَ العُمَّال، حيث كانوا يُطالبون بثلاثةِ أضعافِ الأجورِ والأسعارِ المُعتادةِ، لذلك قرَّر الإمبراطورُ في مرسومِه ثباتَ الأسعارِ والأجورِ القديمةِ، وفرضَ عُقوبةً على كلِّ مَن يُخالف ذلك. انظُر:

Les Novelles de l'Empereur Justinien,traduites en francais Par M.Berenger fils, de Valence,10 toms,Metz,1810-1811,tom.8,pp.90-95.

مظاهرُ العُنف التي تعرَّضت لها المرأةُ بعد انتهاءِ الوباء:

مِن أهمِّ المُضاعفاتِ في فترةِ ما بعدَ الموتِ الأَسوَدِ، هو إثارةُ قلاقلَ شعبيَّةٍ، وذلك بسببِ التَّردِّي العامِّ للنِّظام والقانونِ، فقد عانت المرأةُ وتعرَّضت إلى أصنافٍ كثيرةٍ من العُنف والقسوةِ التي وَصَلت إلى حدِّ الاغتصابِ، فبعد أن تَهَاوت المكانةُ الاجتماعيَّةُ والسُّلطةُ الاقتصاديَّةُ لمُلَّاك الأراضِي، تصاعَد مُستوَى الجريمةِ بشكلٍ مُخيفٍ، وكان للقلاقلِ الطَّبقيَّةِ التي فاقَمَها الموتُ الأَسوَدُ دورُها الحاسمُ في انتفاضةِ (الجاكيري) the Jacquerie Revolt[1]، فقد كان أغلبُ جُنودِها فلَّاحِين، يَسعَون إلى السُّلطةِ السِّياسيَّةِ، وكان القتالُ يدُور في مُعظمِه حولَ الضِّياعِ الكبيرةِ بأوديةِ (اللُّوارِ، والسِّين)؛ أي: في قلبِ المملكةِ. وفي مدينةِ (بوفواسون) Beauvoison اجتمعَ عددٌ من القرويِّين، وانطلَقُوا إلى دارِ الفارسِ، وحطَّمُوها، ثمَّ ذبحُوه هو وزوجتَهُ وأطفالَهُ، وأشعلُوا النَّار في الدَّار، وبعدها انطلقُوا إلى قلعةٍ أُخرى، وأمسكُوا بفارسِها، وأحكَموا ربطَهُ، ثمَّ اغتصبُوا زوجتَهُ وابنتَهُ، ثمَّ قتلُوا الاثنتَينِ وسائرَ أبنائِه، وبعد أن عذَّبوه عذابًا شديدًا ذبحُوه، وأشعلُوا النَّار في القلعةِ، وكرَّروا فعلتهُم في قلاعٍ أُخرى، وأخَذَت أعدادُهم في ازديادٍ، وأخذُوا ينهبُون ويحرقُون كلَّ ما يقعُ تحت أيدِيهم، فيقتُلون الرِّجالَ، وينتزعُون السَّيِّدات والصَّبايا من أهليهنَّ، فيغتصبوهنَّ، كما قامُوا بذبحِ أحدِ الفَوارِس، وقامُوا بشيِّهِ على النَّار على مرأَى ومَسمعٍ من

(٢) بدأت في ٢٨ مايو عام ١٣٥٨م، في شمالِ باريس، واتَّسمت بالعُنف ومُهاجمة بُيوت النُّبلاءِ وسرقتِهم، وقامُوا بقتلِ العشراتِ من النُّبلاء، كما اشتَهَرت بأعمالِ العُنف ضدَّ النِّساء التي وصلَت إلى حدِّ الاغتصابِ، فقد كان مُعظم ضحاياها من النِّساء، وقد تمَّ قمعُها بواسطةِ تحالُف الرِّجال النُّبلاء مع التِّيجان الفرنسيَّةِ، الذين هزمُوا المُتمرِّدين في معاركَ ضاريةٍ. للمزيد انظُر:
Firnhaber, J., The Social Constituency of the Jacquerie Revolt of 1358, **M A A** , July 2020,p.689.

زوجتِهِ وأطفالِهِ، وبعدَها قامُوا باغتصابِ الزَّوجةِ، ثمَّ أرغمُوها على الأكلِ من لحمِ زوجِها، ثمَّ قتلُوها شرَّ قِتلةٍ هي وأطفالَها(١).

وهكذا يتبيَّن لنا، أنَّ الموتَ الأَسوَد كان له تأثيرٌ فعَّالٌ على المرأةِ الأوروبِّيَّةِ ودورِها في المُجتمَعِ، ليس فقط في فترةِ انتشارِ الوباءِ، بل أيضًا بعد انتهائِهِ، فقد كان له بعضُ الآثارِ السَّلبيَّةِ على المرأةِ الأوروبّيَّة، فإلى جانبِ استقلاليَّتِها وقيامِها بأدوارٍ جديدةٍ عليها، تعرَّضت لأكبرِ مَوجةِ عُنفٍ مرَّت على المرأةِ الأوروبِّيَّةِ مِن (قتلٍ، وتعذيبٍ، واغتصابٍ)، ممَّا أدَّى إلى تردِّي الجوانبِ المعنويَّةِ والنَّفسيَّةِ في المُجتمَع الأوروبِّيّ ككُلٍّ.

الخاتمةُ والنَّتائج:

من المُؤكَّد أنَّ هذا الوباءَ كان له تأثيراتٌ إيجابيَّةٌ وسلبيَّةٌ على الأفرادِ، فنتيجةً للضُّغوطاتِ التي عاشَ فيها المُجتمَع الأوروبّيُّ في تلك الفترةِ، انتَشَرت بعضُ الجرائمِ في المُجتمَع، مثل: الجرائمِ التي ارتُكِبت ضدَّ اليهود، أو الجرائمِ التي ارتُكِبت ضدَّ المرأةِ بشكلٍ عامٍّ.

وكانت الحالةُ النَّفسيَّةُ للمُجتمَع ككُلٍّ قد تأثَّرت بعد انتهاءِ الوباءِ، وذلك من كثرةِ ما عانَوْا منه من أهوالٍ، وتأثُّرهم بموتِ الأفرادِ بشكلٍ مُفاجئٍ بعد أن كانوا بكامِل صحَّتِهم، فظهرَ هذا على الأدبِ والفنِّ، بل حتَّى على بعضِ طبقاتِ المُجتمَعِ التي تأثَّرت بشكلٍ

---

(٨) روبرت .س.جوتفرد، الموت الأسود، ص١٥٦: ١٥٨.

كان لانتشارِ الموتِ الأسودِ أسوءُ الأثرِ على الفلَّاحين الذين تركُوا أراضيَهُم التي كانوا يستأجرُونها وينتفعُون منها، ونزحُوا إلى المُدن بعد أن فَقدُوا أبناءَهُم ومَن كان يُساعدُهم في فِلاحةِ الأرضِ، ممَّا أضرَّ بمُلَّاك الأراضي الزِّراعيَّة. انظُر:

Chronicle of Henry knighton, in the peasant's Revolt of 1381,ED by RB.Dopson,London,1983, p. 60.;

جمال فاروق الوكيل، ثورة الفلَّاحين في إنجلترا، ص١١٩– ١٢٠.

سلبيٍّ لا يُحتمَل، كـ(طبقةِ العُمَّال، والفلَّاحِين). وقد كان من عواقِب ذلك قيامُ انتفاضةُ (الجاكيري) ١٣٥٨م، ومن بعدِها ثورةُ الفلَّاحِين في إنجلترا ١٣٨١م، وكان المُجتمَعُ قد أُصِيب بشيءٍ أقربَ إلى الهيستريا الجماعيَّةِ، وظَهَرت كثيرٌ من رُدودِ الأفعالِ التي تنمُّ على تأثُّر نفسيَّةِ الأفرادِ؛ بسببِ الموتِ الأَسوَدِ.

وكانت مُحاولاتُ المرأةِ مُتعدِّدةً لمُكافحةِ الوباءِ، بخلافِ ما هو مُعتادٌ في مُحاربةِ أيِّ وباءٍ من قِبل الهيئاتِ الطِّبِّيَّة، حيثُ كان فيه تحدٍّ عظيمٌ من قِبل المرأةِ ضدَّ المخاطِر التي تتعرَّض لها، فقامَت بتقديمِ الدَّعمِ النَّفسيِّ والرُّوحيِّ اللَّذينِ يُعرَف عنهما أنَّهما يرَفعان من معنويَّةِ ومناعةِ الأشخاصِ، وبالتَّالي يستطيعُ الفردُ مُواجهةَ الوباءِ بشكلٍ طبيعيٍّ، وهو ما كانت تتَّبعُه المرأةُ الأوروبِّيَّةُ بصُورٍ مُختلفةٍ.

واختلفَ دورُ المرأةِ على حسبِ الطَّبقةِ الاجتماعيَّةِ التي تنتمِي إليها، فالمرأةُ الرَّاهبةُ كانت تُؤدِّي مهامَّها بتقديمِ الدَّعم الرُّوحيِّ والدِّينيِّ، إضافةً إلى ذلك تقديم الدَّعمِ الطِّبِّيِّ للمَرضَى، أمَّا المرأةُ العاملةُ فكانت تُؤدِّيَ مهامَّها في وظيفتِها، وأحينًا تقُومُ بمُساعدةِ المرضَى بقدرِ المُستطاعِ، والمرأةُ من العامَّةِ كانت تقومُ بما يُخيِّل لها عقلُها أنَّه في الصَّالحِ العامِّ، كمُشاركتِها في بعضِ الحركاتِ التي ظَهَرت، كـ(السِّياطةِ) ونحوها.

واندثَرَت كثيرٌ من العاداتِ والتَّقاليدِ التي كانَت من المُمكِن أن تضرَّ المُجتمَعَ والأفرادَ في تلك الفترةِ، كـ(المُشاركةِ في القُدَّاساتِ الدِّينيَّة، أو الجنازاتِ)، وظَهَرت عديدٌ من التَّقاليدِ الجديدةِ التي كانت في المُجمَل في مصلحةِ الأفراد.

وكما ظَهَرت سلبيَّاتٌ إبَّان فترةِ الوباءِ، ظَهَرت كثيرٌ من الإيجابيَّاتِ، ومُساعدةِ بعضِ الأفرادِ بعضَهم الآخَر، فعلَى سبيلِ المثالِ: كما كان هناك ما يُسمَّى (الأصدقاء الزَّائفُين)، كان هناك أيضًا ما يُطلَق عليه (إحسان الأصدقاء).

بيان بقائمة المختصرات

البيان	الاختصار
The American Historical Review	A H R
Bulletin canadien d’histoire de la medicine	BCHM
Canadian Bulletin of Medical History	CBMH
Corpus Fontium Historiae Byzantinae	CFHB
English Historical Documents	E H D
A Journal Of Mediaeval Studies	J M S
the Medieval Academy of America	M A A
Mediterranean Historical Review	M H R

قائمة المصادر والمراجع

أوَّلًا : المصادرُ الأجنبيَّة

Agathias,

The Histories, Trans. Joseph D. French , **CFHB**,Vol.2A: Ser. Berolinensis, Berlin. New York,1975.

Ammianus Marcellinus,

Roman History,vol.1, Trans,John C.Rolfe ,London& Cambbridge 1935-1940

Chronicle of Henry knighton, in the peasant's Revolt of 1381,ED by RB.Dopson,London,1983.

DOC NO 31 The Black deathl348,ed.By Mayres in **E H D**, London, 19 ,vol.4.

Doc No.95 statut of labourers 1349 , in A source Book of English historical, Leading Documents, Newyork,1900.

Guy de Chauliac,

La Grande Chirurgie de Guy de Chauliac Chirurgien, Maistre en Médecine de l'Université de Montpellier: Composée en l'An 1363, Felix Alcan,Paris , 1890.

Hydace,

(Hydatius)Chronique, tran.Alain Tranoy, tom.1,Paris,1974.

Jean de Venette,

The Chronicle Of Jean De Venette, translated by Jean Birdsall, ; edited, with an introduction and notes, by Richard A Newhall. Columbia University Press,1953**.**

Jean Froissart,

Chronicles,ed. Brereton, Geoffrey,Baltimore:Penguin Books 1968.

Joshua the Stylite,

The chronicle of Joshua the Stylite,(composed in Syriac A.D. 507)Trans. W. Wright , Cambridge ,1882.

Les Novelles de l'Empereur Justinien,traduites en francais Par M.Berenger fils, de Valence, ,tom.8,Metz,1810-1811.

The Burt Chronicle, Ed.By MS. Eawl& Feiedkich W. , The Early English Text Society.,Part 1,London,1906.

Paul the deacon,

History of the Lombards,trans.William Dudley Foulke,university of Pennsylvania Prees, Philadelphia,2003.

Zachariah Rhetor,

The Chronicle of Pseudo-Zachariah Rhetor, Church and War in Late Antiquity , Translated form Syriac and Arabic Sources by Robert Phenix and Cornelia Horn, TTH55, Liverpool University Press , Liverpool ,2011.

ثانيًا: المصادر العربيَّة والمُترجَمة:

ابن خاتمة الأنصاريُّ:

تحصيلُ غرض القاصدِ، منشورٌ ضمن ثلاثِ رسائل أندلسيَّة، تحقيق: مُحمَّد حسن، المَجمَع التَّونسيُّ للعلوم والفنونِ والآداب، (بيت الحكمة) – تونس، ٢٠١٣.

ابن منظور:

لسان العرب، دار صادر – بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.

جيوفانى بوكاشيو:

الديكاميرون، ت: صالح علماني، دار المَدى للثَّقافة والنَّشر، ٢٠٠٦.

ثالثًا: المراجعُ الأجنبيَّة:

Barry, S. and Gualde, N.:

La Peste noire dans l'Occident chrétien et musulman, 1347-1353, CBMH/BCHM / Volume 25:2 2008.

Baluze (S.):

Vitae Paparum Avenionensum, tome. 1, ed. G.mollat, Paris, 1914.

Bennett, M.:

The Impact of the Black Death onEnglish Legal History, Australian Journal Of Law And Society,1995.

Brucker, Gene.,:

The Society Of Renaissance Florence(New York:Harper),1971.

Bury:

History of the later Roman Empire : from the death of Theodosius I to the death of Justinian (A.D. 395 to A.D. 565) , VOL.1,New York,1958.

Clay, M.:

Drop Dead, Feudalism: How The Black Death Led To Peasants' Triumphover The Feudal System, Historical Paper.

Ditrich, H.:

The transmission of the Black Death to western Europe: a critical review of the, **M H R** , January 2017.

Firnhaber, J.:

The Social Constituency of the Jacquerie Revolt of 1358, the Medieval Academy of America , July 2020.

Franke, C.:

The Black Death, An Unforeseen Exchange:Europe's Encounter With Pandemic Sparked An Age Of Exploration, Historical Paper.

Gaude, F.:

Bullarum diplomatum et privilegiorum, sanctorum romanorum pontificum, tomus.iv, 1340- 1431, Au Gustae tourinorum, Tourinesis, 1859.

Guasti, C.:

de.,Lettere di un notaro ad un mercante del trecento,vol.II,Florence: le Monnier,1880.

Herman B. Allyn:

The Black Death its Social And Economic Results, Annals Of Medical History, Philadelphia.

I. F. C. Hecker:

The Black Death in the Fourteenth Century Translator: B. G. Babington, A. Schloss, London,1833.

Koyama, M., Jedwab, R. and Johnson, N.:

Pandemics, Places, And Populations: Evidence From The Black Death, February, 2019.

MONICA H. GREEN:

Pandemic Disease In the Medieval World rethinking The Black Death, Vol 1, Arc Medieval Press, 2015.

Montgomery, A., Campbell:

The Black Death Andmen Of Learning, New York, 1931.

Moore,W.G.:

The encyclopedia of places,London,1971.

Ole J. Benedictow:

The Complete History of the Black Death, Te Boydell Press, Woodbridge, 2021.

Richard W. Emery:

The Black Death Of 1348 In Perpignan, J M S, Vol. XLII, , No. 4,(October 1967).

Rosemary, H.:

Black Death, Manchester University Press ,1994.

Samuel K. Cohn, Jr:

The Black Death: End of a Paradigm, A H R,Vol . 107,No.3,June2002.

Stathakopoulos, D.:

Crime and Punishment: The Plague in the Byzantine Empire (541-749), in. Laster K. Little(ed.),Plague and the end of antiquity, Cambridge,2007.

Toxicological Profile For Arsenic, U.S. Department Of Health And Human Services, Public Health Service, Agency for Toxic Substances and Disease Registry, August 2007.

Trevor Dean,ed.:

The Towns Of Italy in The Later Middle Ages, New York:Manchester University,Press 2000.

Walter, S. Zapotoczny:

The Political and Social Consequences of the Black Death, 1348 – 1351, 2006.

William L. Langer:

The Black Death, cientific American, Vol. 210, No. 2 (February 1964).

رابعًا: المراجع العربيَّة والمُترجَمة:

أحمد سعداوي:

المغرب الإسلاميُّ في مُواجهةِ الطَّاعون (الطَّاعون الأعظم، والطَّواعين التي تلتهُ) القرنين ٨-٩/١٤-١٥م، .Revue De l'Institut Des Belles-LettresArabes, IBLA,1995,1,t.58.

السيد الباز العرينى:

المغول، دار النَّهضة العربيَّة – بيروت، ١٩٨١.

حسام محمد محلاوي:

الطَّاعون الأَسوَد (٧٤٨-٧٥٢هـ/ ١٣٤٧-١٣٥١م) بين الطَّبيب الأندلسيّ ابن خاتمة الأنصاريّ (ت.٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م) وجامعات وأطبَّاء أوروبَّا (دراسةٌ وثائقيَّةٌ مُقارنةٌ)، مجلَّة وقائع تاريخيَّة، عدد يوليو ٢٠٢٠م.

جمال فاروق الوكيل:

ثورة الفلَّاحين في إنجلترا عام١٣٨١م، مجلَّة كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة – جامعة قناة السِّويس، سبتمبر ٢٠١٤.

جوزيف بيرن:

الموت الأَسوَد، ت: عمر سعيد الأيوبي، كلمة للنَّشر والتَّوزيع، أبو ظبي – الإمارات العربيَّة المُتَّحدة، ٢٠١٣م.

روبرت.س. جوتفريد:

الموتُ الأَسوَدُ جائحةٌ طبيعيَّةٌ وبشريَّةٌ في عالم العصور الوسطى، ترجمة: عبلة كحيلة، المركز القوميُّ للتَّرجمةِ – القاهرة، الطَّبعة الأولى، ٢٠١٧.

عز الدِّين الدرسي – فتحيَّة ميمون:

انتشار الطَّاعون في أوروبَّا في العصرِ الوسيطِ (١٣٤٧- ١٣٥٢م)، مجلَّة كلِّيَّة الآداب – جامعة بنغازي، عدد ٥١، ديسمبر ٢٠٢١م.

علي السيد علي محمود :

الفناء الكبيرُ والموتُ الأَسوَد في القرن الرَّابع عشر الميلاديّ (دراسةٌ مُقارنةٌ بين الشَّرق والغرب)، المجلَّة التَّاريخيَّة المصريَّة، مج ٣٣، ١٩٨٦.

سعيد عبد الفتاح عاشور:

الجامعات الأوروبّيَّة في العُصور الوسطى، موسوعة الثَّقافة التَّاريخيَّة والأثريَّة والحضاريَّة، دار الفكر العربيّ، ٢٠٠٦.

شلدون:

الأوبئة والتَّاريخ (المرض، والقوَّة الإمبرياليَّة)، ت: أحمد محمود عبد الجواد، المركز القوميُّ للتَّرجمة – القاهرة، الطَّبعة الأولى، ٢٠١٠م.

مواهب أحمد، عمار الدوري:

المرأة الأوروبّيَّة في العُصور الوسطى– نساء الطَّبقة العاملة أنموذجًا، مجلَّة الملويَّة للدِّراسات الآثاريَّة والتَّاريخيَّة، مج٦، عدد: ١٧، ٢٠١٩م.

وفاء عندنان حميد:

الأحوال التِّجاريَّة والماليَّة في بلاد القبجاق، حوليَّات آداب عين شمس، مج٤٦، عدد: (أبريل – يونيو ٢٠١٨).

The Black Death epidemic and its impact on women in Western Europe 1347-1350 AD

Abstract

The Black Death, a devastating plague that ravaged Europe and the whole world in the 14th century, had a profound impact on society. Almost no one was spared from the effects of this plague, whether men, women, or children. Women, in particular, bore a great burden during the pandemic period. They fought against this pandemic, whether as housewives or workers, and proved their ability to face crises and succeed in overcoming them. In addition to providing healthcare to the sick at home, they were among the first to work in hospitals. Furthermore, women assumed the crucial responsibility of rebuilding and revitalizing society after the pandemic, as they were tasked with repopulating European communities through marriage and childbirth.

Keywords: Pandemic , Plague , Black Death , Women , Europe.